القسم الأول

عبثيات في العلوم والثقافة

الوقفة الأولى:

العَبَث بالضوابط

لو أراد المرء الملاحقة لصنوف العبث لوجد مجالاً رحبًا يملأ الصفحات، قد يملُّ معها، القارئ، في النهاية أو قبل النهاية. الذي أودُّ الوصولَ إليه هو أنْ نركِّز على ضرورة دوام وجود مرجعية لبيان العبث والحدِّ منه، وربَّما التقليص، أو التخلُّص منه، ذلك أنَّه:

لاَ يَصْلُحُ الْقَوْمُ فَوْضَى لاَ سَرَاةَ لَه

وَلاَ سَرَاةَ إِذَا جُهَّالُهُمْ سَادُوا

وذلك أنَّه أيضًا:

إِنَّمَا الأُمُمُ الأَخْلاَقُ مَا بَقِيت

فَإِنْ هُمُ ذَهَبَتْ أَخْلاَقُهُمْ ذَهَبُوْا

وذلك أنَّه كذلك:

إِذَا الإِيمَانُ ضَاعَ فَلاَ أَمَانٌ

وَلاَ دُنْيَا لِمَنْ لَمْ يُحْيِ دِيْنَا

المرجو من القارئ، الذي يرغب في المزيد من هذه الضوابط، العودة إلى الجزء الثامن والعشرين من فتاوى ابن تيمية ـ رحمه الله ـ حيث خُصِّص هذا المجلَّد للجهاد في سبيل الله، بالمفهوم الشامل لمعنى الجهاد، وجعل من الجهاد في سبيل الله الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.[1]

هذا أمر كفيل ـ بإذن الله ـ أنْ يحدَّ من صنوف العبث في الأخلاق والسلوكيات الخاصَّة والعامَّة، ذلك أنَّ ابن تيمية يُقنع القارئ، عقلاً، أنَّه إنْ لم يؤمرْ بالمعروف ويُنْهَ عن المنكر، أُمِر بالمنكر ونُهي عن المعروف، وأنَّ هذه شعيرة قديمة قدمَ رغبة الإنسان في الخير والاستقرار، وابتعاده عن الشر، كانت موجودة عند من كان قبلنا، وهي موجودة، الآن، عندنا ـ بحمد الله ـ، وهي كذلك موجودة عند غيرنا من الأمم التي ملَّت من التجاوزات والعبث في السلوكيات الاجتماعية، فأوجدت الجمعيَّات والمنظَّمات والتنظيمات التطوُّعية، التي تسعى إلى الحدِّ من هذا المنكر في عُرف تلك المجتمعات.

ظهرت لذلك تنظيرات ودراسات ومؤسَّسات شعبية ورسمية، تسعى، في نهاية مطافها، إلى الحدِّ من العبث الذي بدأت تظهر

(١) انظر: أحمد بن عبدالحليم بن تيمية. **مجموع فتاوى شيخ الإسلام أحمد ابن تيمية**.. ٣٧ مج/ جمع وترتيب عبدالرحمن بن قاسم العاصمي النجدي الحنبلي ومحمَّد ابن عبدالرحمن بن قاسم.. الرياض: دار عالم الكتب، ١٤١٢هـ/ ١٩٩١م.. ٢٨: ١٢١ ـ ١٧٩.

آثاره على هذه الأمَّة وعلى تلك، مما سبَّب في مؤشِّرات لضياع الأجيال الناشئة، التي بتصرُّفاتها هذه لا تضيِّع نفسها، ولكنها تضيِّع أمَّتها، ويدخل في ذلك العبث في تاريخها، ومعطياتها الحضارية، وموقعها من الكونية القائمة الآن. من مواجهة هذا العبث الاعتراف بأنَّ هناك قدرًا منه بدأ يتفشَّى، لكنه كان نتيجة لجهود عابثين قديمة جدًا، ليست وليدة هذه التقليعة أو تلك الطارئة.

حيث إنِّني أدَّعي وصلاً بالاستشراق والتنصير، أدرك أنَّ هناك جهودًا مبذولة أدَّت، فيما أدَّت إليه، إلى أصناف من العبث على مختلف المستويات الثقافية والفكرية، بل والعلمية، ولم تسلم المجتمعات والأفراد من هذا العبث، ممَّا يؤكِّد ضرورة تدخُّل المرجعية القوية بقوَّة السلطان والقرآن، تكون مهمَّتها تقليص الجهود الرامية إلى هذا التوجُّه، سعيًا للقضاء عليها، بحيث تعيش الأمَّة من منطلق: اعمل لدنياك كأنَّك تعيش أبدًا، واعمل لآخرتك كأنَّك تموتُ غدًا، فالدنيا لها متطلَّبات، والآخرة لها متطلَّبات، ومتطلَّبات الدنيا هي مطيَّة متطلَّبات الآخرة. وهامش المباح في الدنيا واسع جدًا، فلِمَ اللجوء إلى غير المُباح؟

☆ ☆ ☆

الوقفة الثانية:

العَبَث بالدِّين

من الأمور المهمَّة التي لها تأثير على النظرة إلى الحياة والوجود تلك النظرة التي تستمدُّ مقوِّماتها من منطلق انتمائي، هو في حالنا يقوم على الدين. ونعلم أنَّ الإسلام هو خاتم الأديان، وأنَّه قائمٌ على العلم، فهذا الدين علم، وفي الحديث الشريف دعوة قوية مؤكَّدة على مَن يؤخذ عنه هذا الدين.

تولَّى الحديثَ عن الدين وعلومه، بصورة سلبية، فئةٌ ممَّن يُعَدُّون من العابثين، ممَّن لا ينتمون إلى هذا الدين بالضرورة، أولئك الذين قيل عنهم، عبثًا، إنَّهم قد فهموا الإسلام أكثر من فهم أهله له! ولعمري إنَّها لعبارة غير موزونة، وربَّ كلمةٍ قالت لصاحبها دعني.

أولئك القوم الذين مارسوا العبث في علوم الدين هم من فئة المستشرقين، الذين لا ينتمون إلى الدين الذي يتحدَّثون عنه،[1] وفي ذلك يقول فاخ، وهو منهم: «إنَّ الانتماء والالتزام بالدين

(١) علي بن إبراهيم الحمد النملة. **ظاهرة الاستشراق: مناقشات في المفهوم والارتباطات**. . ط ٢. . الرياض: المؤلِّف، ١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٣م. . ٢١٠ ص.

للباحث في الأديان لاشكَّ يؤثِّر على فهمه لها ويحدِّده، ولكنه في الوقت نفسه يمكِّنه من أنْ يكون حسَّاسًا تجاه البعد الروحي للأديان، دينه ودين الآخرين على السواء».[1] وفاخ هذا أسهب في الحديث عن نظرية الفهم في علم تاريخ الأديان، استعرضها محمَّد خليفة حسن في كتاب له بعنوان: أزمة الاستشراق الحديث والمعاصر.[2]

جاء العبث في علوم الدين من لدن بعض المستشرقين بسبب ما اتَّسم به الاستشراق، في بداياته، من التحيُّز ضدَّ الإسلام؛ لأسباب كثيرة ذاتية وظرفية. ومن ثمَّ فإنَّ الاستشراق «لم يصل في الماضي إلى فهم جيِّد للإسلام كدين وحضارة، ولن يتمكَّن من الوصول إلى هذا الفهم في الحاضر والمستقبل، طالما سيطرت عوامل التحيُّز المختلفة على عقل المستشرق ووجدانه.

للأسف الشديد أنَّ الإسلام لم يستفد، كما استفادت الأديان الأخرى، من التقدُّم العلمي في مجال تاريخ الأديان، فمؤرِّخو الأديان انصرفوا عن دراسة الإسلام، وأهملوه إهمالاً كاملاً، فلم يستفِد من الموضوعية التي حقَّقوها في مجال علم تاريخ الأديان،

(١) محمَّد خليفة حسن. **أزمة الاستشراق الحديث والمعاصر**.. الرياض: جامعة الإمام محمَّد ابن سعود الإسلامية؛ عمادة البحث العلمي، ١٤٢١هـ/ ٢٠٠٠م.. ص ٢٥٩.

(٢) محمَّد خليفة حسن. **أزمة الاستشراق الحديث والمعاصر**.. المرجع السابق.. ٤٧٠ ص.

وتركوا الإسلام للمستشرقين، الذين لم يستفيدوا من علم تاريخ الأديان في موضوعيته. وانفردوا بالإسلام، يمارسون معه كلَّ أشكال التحيُّز الممكنة.

لا أملَ في إصلاح الحال طالما استمرَّ الاستشراق على حاله تتحكَّم فيه دوافعه وأهدافه غير العلمية».[1]

هذه وجهة نظر عالِم من علماء نقد الاستشراق المعاصرين هي جديرة بالتأمُّل، مهما بدا عليها من نظرة غير متفائلة حول الاستشراق، ممَّا يؤكِّد أنَّ هذا المنحى في دراسة الإسلام قد أسهم في منظومة العبث في علوم الدين، مما يحتاج معه إلى أكثر من وقفة، منها ما يركِّز على بعض أولئك الذين تأثَّروا بهذا المنحى في فهم الدين من أبناء الدين نفسه، ورأوا من الدين على أنَّه مقيِّد من مقيِّدات التقدُّم الحضاري، بما في الحضارة من مقوِّمات فكرية وثقافية، لا تقتصر على النظرة الماديّة للحضارة، فكان أن وقف بعض المفكِّرين وبعض الساسة يصدُّون عن الدين، ويسعون إلى إسباغ هالة من التسيُّب والانفلات، سعيًا منهم إلى ترسيخ وجودهم، وهم لم يكونوا، بالضرورة، على صلة قوية بعلوم الدين، وإنْ كانوا يدَّعون أنَّهم

(١) محمَّد خليفة حسن. **أزمة الاستشراق الحديث والمعاصر**. . المرجع السابق. . ص ٢٧٦ . ٢٧٧.

على صلة أقوى بالفلسفة، مما حدا بهم إلى تفسير الدين، والقرانُ الكريم مصدرُه، تفسيرًا فيه من التأثُّر بالمنحى الاستشراقي ما فيه.[1]

☆ ☆ ☆

(١) انظر مثلاً: إسهامات نصر حامد أبو زيد في التعامُل مع النصِّ القرآني الكريم، ومنها: **مفهوم النصِّ: دراسة في علوم القرآن**.. ط ٢.. بيروت: المركز الثقافي العربي، ١٩٩٤م.. ٣١٩ ص. **والاتِّجاه العقلي في التفسير: دراسة في قضية المجاز في القرآن عند المعتزلة**.. ط ٢.. بيروت: دار التنوير، ١٩٨٣م. **وفلسفة التأويل: دراسة في تأويل القرآن عند محيي الدين بن عربي**.. بيروت: دار التنوير، ١٩٨٣م.

الوقفة الثالثة:

العَبَث بعلوم الدين

من الحديث عن العبث في علوم الدين عند المستشرقين إلى الحديث عن العبث في علوم الدين لدى بعض المسلمين، الذين تأثَّروا بطروحات المستشرقين، وزعموا أنهم فهموا الإسلام أكثر من فهم أهله له، وتأثَّر المسلمون بالمنحى الاستشراقي في فهم الدين عندما أخضع المستشرقون بخاصَّة، وعلماء اللاهوت بعامَّة، الدين إلى النقد على اعتبار أن الدين - عندهم - نصوص مأثورة عن بشر، وكلام البشر يؤخذ منه ويردُّ، ويعتريه الصواب والخطأ، حتى ظهر عندهم علم نقد الكتاب المقدَّس. فطبَّقوا على الدين الإسلامي قضايا النقد اللاهوتي، الذي مارسوه في ديانتهم على وجه الخصوص.

لعل هذا ناتج عن الشعور بأنَّ الكتاب المقدَّس في عهديه القديم والجديد قد تعرَّض للتحريف. وتأثَّر بهم بعض أصحابنا، بعلم منهم في الغالب، أو دون علم، فظهرت أعمال لمستْ النصَّ القرآنيَّ، وسعت إلى نقده، متجاهلة قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمَّا جَاءَهُمْ وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ ﴿٤١﴾ لا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلا مِنْ خَلْفِهِ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ (فصلت: ٤١-٤٢).

من أسباب ذلك العبث في النصوص الشرعية الثابتة، ثبوتًا قطعيًا نصًا ودلالة،، أنَّ أصحابنا تتلمذوا على فئة من المستشرقين واللاهوتيين، في مجال مقارنة الأديان، فأخذوا عنهم هذه الجرأة على النصوص.

في سماء الثقافة العربية والإسلامية أسماء معاصرة، ومنهم أحياء يرزقون، ممن خاضوا في هذا، وأصدروا المقالات العلمية والكتب التي تعالج النصَّ بصورة عبثية، لم يشهد التراث العربي الإسلامي لها مثيلاً بهذه الجرأة، وإنْ وجدت رؤىً وأفكارٌ ذات علاقة بالتأويل والتعطيل والتمثيل والتشبيه والتكييف، مما لا يدخل ـ بالضرورة ـ في هذا المفهوم السطحي للعبث بالنصوص الشرعية.

حول ولوج أصحابنا هذه المتاهة يقول ولفرد كانتول سميث في كتاب له بعنوان: الإسلام في التاريخ الحديث: «وقد سافر كثير من الشباب المسلم إلى الغرب، واطَّلعوا على روح أوروبَّا وقيمها، وأعجبوا بها إلى أبعد حدٍّ. وينطبق هذا بخاصَّة على الطلاب الذين درسوا في جامعات أوروبَّا بعدد لم يزل يزداد مع الأيام، وهم الذين سبَّبوا استيراد كثير من أفكار الغرب وقيمه إلى العالم الإسلامي ... وكان مما صدَّره الغرب إلى العالم الإسلامي تلك الأفكار المتعدِّدة والاتِّجاهات العقلية الدقيقة الفجَّة والميول

الحديثة التي كان في نشرها أوفر نصيب لنمط التعليم الغربي، ويفوقها في ذلك تأثير معاهد الغرب الحقوقية والسياسية والاجتماعية ونفوذها الزائد ... وهكذا أثَّرت عملية التغريب بسرعة وقوَّة بالغتين».[1]

مثل هذا ما قاله موريس بوكاي في كتابه المشتهر الكتب السماوية والعلم، الذي شاع لمدَّة من الزمان وكأن مفكِّري العرب قد تناسوه، الآن، مع ما فيه من فائدة وعلم قابل للامتداد في التأثير زمانًا ومكانًا.[2]

تردَّدت كلمة أصحابنا رغبة عن ذكر الأسماء لأشخاص يُرجى لهم الرجوع إلى الحقِّ، على اعتبار أنَّ الرجوع إلى الحقِّ خير من التمادي في الباطل.

يظلُّ العبث في النص الشرعي بخاصَّة، وفي علوم الدين بعامَّة، قائمًا ما قام هذا الدين، وأنّ يعبث به الغرباء عنه لدوافع وأهداف معلنة وغير معلنة، فهذا أمر قابل للفهم، فقد عبثوا بالنص وهو ينزل، لكن أنّ يتصدى للعبث به أبناء جلدته فهذا أمر

(١) محسن عبدالحميد. **أزمة المثقَّفين تجاه الإسلام**. القاهرة: دار الصحوة، ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م. ص ١٣١. نقلاً عن: محمَّد خليفة حسن. أزمة **الاستشراق الحديث والمعاصر**. مرجع سابق. ص ٢٧٦ - ٢٧٧.

(٢) موريس بوكاي. **القرآن الكريم والتوراة والإنجيل والعلم: دراسة الكتب المقدَّسة في ضوء المعارف الحديثة**. القاهرة: دار المعارف، ١٩٧٨م. ص ١٤١.

يحتاج إلى تأمُّل. وتظل الهداية من الله تعالى، وأحدنا لا يملك أن يهدي من أحبَّ، ﴿لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ وَمَا تُنفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَلأَنفُسِكُمْ وَمَا تُنفِقُونَ إِلاَّ ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللَّهِ وَمَا تُنفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لا تُظْلَمُون﴾ (البقرة: ٢٧٢).

الوقفة الرابعة:

العَبَث بالتاريخ

من العبث في علوم الدين، والدين نفسه، إلى العبث بالتاريخ عامَّة، والتاريخ الإسلامي بخاصَّة، إذ إنَّ بعضًا من المؤرِّخين الأجانب من المستشرقين والأدباء العرب من غير المسلمين، قد أساءوا إلى التاريخ الإسلامي إساءة متعمَّدة، في المجمل، لا في الكُلِّ، ساعدهم في ذلك تلك الموضوعية في السرد التاريخي التي لجأ إليها بعض المؤرِّخين والمفسِّرين من المسلمين، والمؤرِّخين من غير المسلمين، كالطبري والقرطبي وابن كثير والمسعودي وابن الأثير، وغيرهم عندما أدخلوا في سردهم التاريخي، وفي تفسيرهم، بعض الأخبار الإسرائيلية التي بثَّها اليهود في ثنايا توثيق الأحداث والأخبار.[1]

ثم يمضي الزمان ويظهر علينا كُتّابٌ وأدباء ومؤرِّخون في نهاية القرن التاسع عشر إلى بداية القرن العشرين الميلاديين. ويدرك المؤرِّخون والمختصُّون هذا الدسَّ على التاريخ

---

(١) انظر: علي حسني الخربوطلي. **المستشرقون والتاريخ الإسلامي**. ـ القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٨م. ـ ١٣٧ ص. ـ (سلسلة تاريخ المصريين؛ ١٥).

الإسلامي، ويعالجونه في بحوثهم ودراساتهم وندواتهم ومؤتمراتهم، ليبقى محصوراً بينهم. وبقاء الردود محصورةً بين المختصِّين يفوِّت الفرصة على المتابعين من القرّاء المحبِّين للتاريخ، دون أن يكونوا من المختصِّين. فيظهر من هؤلاء القُرَّاء كُتّاب، لهم بدورهم قُرّاء، قد تكون كتاباتهم محصورة على الصحافة السيّارة من جرائد ومجلات ثقافية، ثم يظهر منهم كُتَّاب الروايات التاريخية، التي يبحث عنها المنتجون والمخرجون في أجهزة الإعلام من إذاعة أو تلفزيون.

لأنَّ المشاهِد التمثيلية تحتاج إلى البهارات، تُدخل عناصر العشق والحبِّ والغرام في مشهد تاريخي مصيري لا علاقة فيه، وبه وله، بالعشق والحبِّ والغرام، فيفسد الغرض النبيل من الحادثة التاريخية بسبب هذه "البهارات"، التي لا تكاد تخلو منها قصَّة تاريخية لحلقة واحدة أو لحلقات مسلسلة، حتى يصل الأمر إلى أن تكون الفتوح الإسلامية التي كانت من أسباب انتشار الإسلام قامت لأسباب تتعلَّق بالعشق والغرام.

استعرِضوا - إنْ شئتم - روايات تاريخ الإسلام من إعداد جرجي زيدان، الذي كتب عن تاريخ التمدُّن الإسلامي. وهي سلسلة بدأت أحداثُها من عصر الخلفاء الراشدين إلى سقوط الخلافة الإسلامية العثمانية سنة ١٣٤٣هـ/ ١٩٢٤م، مروراً بالحروب

الصليبية وموقعة حطِّين، التي أُعيدت أسبابها إلى التعلُّق بفتاة من قبل قادة هذه المعركة من المسلمين، حتَّى عنوانات الروايات كانت مثيرةً، وصورة الغلاف كانت أكثر إثارة، من غادة كربلاء إلى العبَّاسة أخت الرشيد إلى فتاة غرناطة، وما إلى ذلك.(١)

العجيب أنَّ هذه السلسلة من الروايات كانت مقروءة بصورة مذهلة عند خروجها عن دار الهلال للنشر بالقاهرة، الرائدة بمجلَّتها المشهورة، وسلسلة كتاب الهلال المشهورة أيضًا، بما أسهمت به في نشر الثقافة العربية الإسلامية، تلك الدار التي كان لجرجي زيدان، هو وأهله، الفضل في إنشائها سنة ١٨٩٢م.(٢)

ثمَّ تبعه بعضٌ من أصحابنا على هذا النسق الذي لم يسلم منه الأنبياء والرسل، على ما جاء في الإسرائيليات عن داود عليه السلام، وأضحت الإسرائيليات أرضية، أو خلفية، أيِّ ظهارة، كادت أنْ تقترن بالنصِّ القرآني.(٣) بل إنَّ محمَّداً ﷺ لم يسلم منه، وحيكت حوله ما حيكت حول داود عليه السلام، بفعل تأثير المستشرقين وتدخُّلهم

---

(١) انظر: عبدالرحمن بن صالح العشماوي. **وقفة مع جرجي زيدان**. ـ ط ٢. ـ الرياض: مكتبة العبيكان، ١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٣م. ـ ١٢٣ ص.

(٢) انظر: أمين بن حسن الحلواني. **نبش الهذيان من تاريخ جرجي زيدان**/ تحقيق مازن صلاح مطبَّقاني؛ تقديم محمَّد السيد الوكيل. ـ المدينة المنوَّرة: مكتبة ابن القيم، (١٤١٠هـ ـ ١٩٨٩م). ـ ٨٤ ص. ـ (سلسلة دراسات منهجية للاستشراق؛ ٤).

(٣) انظر: حسني يوسف الأطير. **البدايات الأولى للإسرائيليات في الإسلام**. ـ ط ٢. ـ القاهرة: مكتبة النافذة، ١٤٢٥هـ/ ٢٠٠٤م. ـ ص ٩.

في تفسير التاريخ، حينما ربطوا بين ما ادّعوه على داود عليه السلام بما ادّعوه أيضًا على محمَّد بن عبدالله ـ عليه الصلاة والسلام ـ ثم القيادات الإسلامية التالية، فاختلقوا لها رمزًا غراميًّا، تُدافع عنه، أو تبتغيه، فتثير الحروب من أجله، وتجيِّش الجيوش، وتُعلن الجهاد.

هكذا كان العبث بالتاريخ الإسلامي والفتوحات الإسلامية والرموز الإسلامية، التي اتُّهمت اتِّهامات هي منها براء، فالذي كان يغزو عامًا ويحجُّ عامًا تُحاك حوله قصص اللهو والطرب والشراب، حتى شاع مصطلح "الحريم" لدى المستشرقين، فقالوا إنَّه ـ رحمه الله ـ عندما كان يرقى الدرج كان يتَّكئ على نهود الجاريات![1]

يستمرُّ مسلسل العبث في علوم المسلمين وموروثاتهم، ويتأثَّر بهذا المسلسل بعضٌ من أبنائه، مما يحتاج معه إلى مزيد من الوقفات الهادئة، التي تخاطب العقل بأمثلة حصلت، وحصل لها قدر عالٍ من التحريف.

☆ ☆ ☆

(١) انظر: عبدالقادر طاش. **هارون الرشيد**.. بلينفيلد، إنديانا: منظَّمة الشباب المسلم العربي،.

الوقفة الخامسة:

العبث بالتراث (١)

يتعرَّض التاريخ عمومًا، والتاريخ الإسلامي بخاصَّة، إلى النبش المتواصل من بعض الدارسين غير المنتمين إلى هذه الثقافة. ويظهر مَن يكتب عن تاريخ المسلمين متأثِّرًا بالطرح الاستشراقي لفهم التاريخ، إلى درجة القول بأنَّ هؤلاء المستشرقين المتخصِّصين في دراسة التاريخ، كما تقول الباحثة **مَيُّ الخليفة**: «قد استطاعوا، من خلال بحوثهم وتحليلاتهم، الوصول إلى خفايا تاريخنا القديم، في حين بقينا نحن متمسِّكين بالموروث الملقَّن، وحتى لا نرهق عقلنا بالحقائق اكتفينا باتِّهام أولئك الأجانب بالتلفيق والكذب وتدبير المؤامرات للنيل من العرب والمسلمين.

لقد سبقونا في قراءة الشعر الجاهلي وسبقونا في تفسيره وفي اكتشاف السمات الحضارية في التاريخ الإسلامي. وكتبوا عن عباقرة المسلمين ومناهجهم، وجاؤوا يبحثون عن قبر الحلاَّج وأشعاره، وعرفوا أهمية المدوَّنات الموضوعة والمترجَمة، ونقلوا تراث اليونان إلى أوروبَّا مرَّةً أخرى. وكانت لغة العرب هي الوسيط الناقل!

ربَّما أخطؤوا في المسمَّيات، وربَّما تغاضى البعض منهم (بانحياز مبطن) عن بعض الحقائق، ولكن يبقى الكم الهائل من كتابات أولئك المستشرقين تثير فينا الرغبة في المعرفة وتدعونا أنْ نبدأ بالبحث من جديد».[1] هكذا تستهلُّ الكاتبة المؤلِّفة مي محمَّد الخليفة كتابها: من سواد الكوفة. وتدعو الكاتبة المؤلِّفة إلى تبنِّي المنهج الاستشراقي في دراسة التاريخ.

من أقرب ما يمكن الاستشهاد به في إثارة موضوع الفِرق، التي نشأت في الفكر الإسلامي المستشرق برنارد لويس، ولذا تستشهد المؤلِّفة به في كتاباته عن أصول الإسماعيلية والفاطمية والقرمطية، التي نال بها درجة الدكتوراه.[2]

التعليق على هذا الكتاب ينحو منحىً فكريًّا، لا تعليقًا تاريخيًّا، لأنِّي أدعو إلى أنْ نُعطي القوس باريها، ونترك التحليل وتفسير التاريخ للمؤرِّخين المتخصِّصين، الذين يتعرَّضون، بالمناسبة، إلى قدر كبير من التجاهُل في الوقت الراهن لأسباب آنية.

---

(١) مي محمَّد الخليفة. **من سواد الكوفة دل إيرانشهر إلى البحرين: القرامطة من فكرة إلى دولة**. بيروت: المؤسَّسة العربية للدراسات والنشر، ١٩٩٩م. ص ٩ ـ ١٠.

(٢) انظر: برنارد لويس. **أصول الإسماعيلية والفاطمية والقرمطية**/ ترجمة حكمت تلحوق. بيروت: دار الحداثة، ١٩٨٠م. وانظر له أيضًا: **الحشَّاشون: فرقة ثورية في تاريخ الإسلام**/ ترجمة محمد العزب موسى. ط ٢. القاهرة: مكتبة مدبولي، ٢٠٠٦م. ٢٠٣ ص.

لستُ أقفُ لأناقشَ الكاتبة المؤلِّفة مي محمَّد الخليفة في تأثُّرها بالفكر الاستشراقي؛ إذ إنِّها ليست الأولى في ذلك، ولا أظن أنَّها ستكون الأخيرة فيه، فقد قيل قبلها ما لم تقله هي، ولا أظنها تقوله، بأنَّ الاستشراق قد فهم الإسلام نفسه أكثر من فهم أهله له، وأعمق من فهمهم له ـ كما مرَّ ذكره .. وهذا قول ينسحب على مرِّ العصور الإسلامية.

الذي يسترعي الانتباه عند قراءة المنهج الاستشراقي في فهم التاريخ الإسلامي هو تطبيق منهج الإسقاط في هذا الفهم، إذ إنَّ الاستشراق، وتبعه بعضٌ من المتأثِّرين به، يُسقِطون التاريخ الإسلامي على حالين: الحال الأولى هي التاريخ الغربي، بما كان فيه من مؤامرات وظلم وجور وإقطاع، وغيره.

الحال الثانية هي واقع الحال المعاصر الغربي، كذلك، بما يكنِّه للإسلام والمسلمين من مشاعر لم يوفَّق في إخفائها، بما في ذلك إسقاط حال المسلمين اليوم على حالهم بالأمس، وحال المسلمين اليوم المعاصر ليس كما حالهم بالأمس الماضي على الإطلاق، وإنّ مرَّ على المسلمين أحوال هي أشدُّ مما هم عليه الآن، مع أنَّ حالهم اليوم شديدة.[1]

(١) انظر: شوقي أبوخليل. **الإسقاط في مناهج المستشرقين والمبشرِّين**. . دمشق: دار الفكر، ١٤١٩هـ/ ١٩٩٨م. . ٢٤٠ ص.

دراسة التاريخ وفهمه وتفسيره مطلب مُلِحٌّ، فما قاله أرباب هذا الفن من السالفين ممن لهم فضل نقل الأخبار ليس كله كلامًا مسلَّمًا فيه، كما يعلم أهل الاختصاص. ولعلَّ من أهمِّ متطلَّبات تفسير التاريخ هو تبنِّي المنهج التاريخي في الفهم والتفسير والتحليل والنقد، وإذا اقترن ذلك بالانتماء لهذا التاريخ كان التحليلُ غيرَ التحليل الذي أطلَّ علينا به رهط من المستشرقين، وتأثَّر به بعضٌ من إخواننا وأخواتنا.

☆ ☆ ☆

الوقفة السادسة:

العَبَث بالتراث (٢)

بدأ الحديث عن كتاب المؤلِّفة **مي بنت محمَّد الخليفة: من سواد الكوفة إلى البحرين** من منطلق فكري،[١] لا من منطلق علمي تخصُّصي، أُخذَ فيه على الكاتبة اتِّكاؤها على المستشرقين عمومًا، وعلى كل من **برنارد لويس ودي خويه** بخاصَّة، حيث كتبا عن الموضوع الذي ركَّزت عليه المؤلِّفة، بالإضافة إلى اتِّكائها على **محمَّد أركون ومحيي الدين اللاذقاني**، وسمَّته في الحواشي محيي الدين اللاذقي، وردَّته إلى اسمه الأصلي في قائمة المراجع، ثم رجعتْ إلى أمَّهات الكتب الأخرى، وهؤلاء سبقوها في الكتابة عن الموضوع نفسه. والحقُّ أنها، علميًا ومنهجيًا، قد توسَّعت في الرجوع إلى المصادر ثم المراجع.

أُركِّز على الناحية الفكرية في اتِّكائها على المستشرقين، لاسيَّما عند حديثهم عن الفِرق، والقرامطة على وجه الخصوص. وجاء في سردها للأحداث تسويغٌ لما قام به القرامطة، حتى

---

(١) مي محمَّد الخليفة. من **سواد الكوفة دل إيرانشهر إلى البحرين: القرامطة من فكرة إلى دولة**. . مرجع سابق. . ٣٧٨ ص.

احتجازهم للحجر الأسود في هَجَر لمدة اثنتين وعشرين سنة، مرَّ عليها، أو مرَّت عليه، مرور المسوِّغين لأعمال غير قابلة للتسويغ.

الاتِّكاء على المستشرقين وعلى المحسوبين عليهم، يوقع الباحث في مزلق البعد عن الانتماء للتاريخ، أو البيئة التي يكتب عنها. ومهما حاولنا رصد الحسنات التي جاء بها المستشرقون إلا أنَّنا لا نملك الخروج عن الانطباعة التي تؤيِّدها إسهامات موجودة أنَّ المستشرقين لم يكونوا جميعًا، طوال إسهاماتهم هذه، إيجابيين مع التاريخ الإسلامي، وغالبهم كان كذلك، وليس كلهم.

الزعم بأنَّهم فهموا تاريخنا أفضل من فهمنا له زعمٌ له أسبابه الذهنية في عقول المتأخِّرين من علماء التاريخ والحضارة والكاتبين حولها، جلِّهم، وليس كلَّهم، حتى أصبح من متطلَّبات الكتابة العلمية عن التاريخ الإسلامي رصد مراجع باللغات الأخرى، في نهاية العمل العلمي، وإنْ يكن صاحبه لا يجيد أيًا من هذه اللغات، ولكن الأمين من هؤلاء هو الذي يلجأ إلى المترجمين.

لست خائضًا، مرَّة أخرى، في عمق التاريخ، والنظرة إلى الموضوع الذي طرقته الكاتبة المؤلِّفة، ولكني أنتقدها في منهجيتها التي سارت عليها، واستعملت أسلوب التسويغ لما حلَّ بالتاريخ الإسلامي، من الخروج على الخلافة، في مركزها الرئيس، في دمشق ثم في بغداد، وشقِّ عصا الطاعة، ممَّا له حكم في الشرع

الإسلامي، لا يحسُن الخوض فيه كذلك، وإنّ كثُر اليوم الخائضون في أحكام الشرع، دون بضاعة تذكر.

على أيِّ حال، وللاحتراز مرَّة أخرى، فإنَّ هذه الوقفة، وسابقتها، لا تحجر، ولا تملك الحجر، على الفكر والأفكار، والرغبة في إعادة قراءة التاريخ بعامَّة، والتاريخ الإسلامي بخاصَّة ما دام أنَّ عامل الانتماء موجود، وما دامت معايير هذا الانتماء مطبَّقةً على إعادة قراءة التاريخ.

إنَّ الانبهار بالآخر سمة غلبت على عدد من أنماط حياتنا، حتى الحياة الفكرية والثقافية والعلمية لم تسلم منه، ومردُّ هذا عوامل عدَّة، لا أظن أنَّها تغيب عن فطنة القارئ. إنَّنا نحتاج إلى مزيد من الوقت لتخطِّي مرحلة الانبهار هذه.

☆ ☆ ☆

الوقفة السابعة:

العَبَث بالفتوى

من العبث بعلوم الدين لدى المستشرقين، ومن حذا حذوهم من أصحابنا، ممن تأثَّروا به، من هذا العبث إلى العبث بالدين نفسه من أصحاب آخرين لنا استسهلوا الولوج في قضايا دينية، تحتاج إلى أحكام شرعية وفتاوى واجتهادات، لا يقوم بها إلا المؤهَّلون علميًا، لاسيَّما أنَّ هذا الدين علمٌ لا دخلَ قويًا للعاطفة فيه والرؤى الشخصية، غير المبنية على علم بقواعد العلم والمعرفة لدى ذوي الاختصاص.

نحن هنا نقف أمام توجُّهين؛ كل واحد منهما في طرف، التوجُّه الأول هو ذلك التوجُّه من فئة من المخلصين، الذين لا يريدون أنْ يسلكوا سلوكًا إلا وقد عرفوا الحكم فيه. وهذا أمر طيب ومقبول، بل إنه مطلوب، إلا أنَّ هذا الهاجس قد زاد عن حدِّه عند فئة من الناس الحذرين، حتى لقد وصل الأمر عند هذه الفئة إلى أنْ ترى أنَّ الأصل في الأشياء هو المنع، بينما من الأصول، لدى أهل الأصول، بالمفهوم الإسلامي للأصوليين، أنَّ الأصل في الأشياء هو الإباحة، وإنَّما يأتي المنع بموجب النصوص الشرعية.

هذه قاعدة أصولية معروفة، لكن بعض الذين يعرفونها نظريًا قد تحصل منهم تجاوزات معها، بحيث تنقلب الآية في واقعهم العملي وسلوكياته اليومية. ألا ترون أنَّه عندما يُنهى شخص عن فعل شيء، يقابل ذلك بسؤال استنكاري يصبُّ في الرغبة في معرفة ما إذا كان هذا الفعل حرامًا! فيتردَّد السؤال الذي تعوَّدنا عليه: وهل هذا الفعل حرام؟

تنزع هذه الفئة من إخوتنا وأخواتنا إلى التشديد في الأمور كلها، ولكن الشخص المشدِّد لا يقدِّم نفسَه على أنَّه مشدِّد، بل إنَّه، أو إنَّها، ترى نفسها تسير على الخطِّ الذي ينبغي السير عليه، وربَّما اتَّهم نفسه مع ذلك بالتقصير، مما يوحي بأنَّ لديه الرغبة في المزيد من التشديد. يقول سفيان الثوري (إمام الحفَّاظ، الكوفي المجتهد، ت ١٢٦هـ/ ٧٤٣م): «إنَّما العلمُ عندنا الرُّخصةُ من ثقةٍ، فأمَّا التشديدُ فيُحسنه كلُّ أحد».[١]

لست ممَّن يعالج هذا قطعًا، إذ العلاج بأيدي العلماء الذين نذروا أنفسَهم وأوقاتهم لخدمة هذا الدين، خدمة مباشرة، ذات علاقة قوية بعلوم الدين في العقيدة والفقه، فقه العبادات وفقه المعاملات. على أنَّ هذه الفئة لا تخلو من الرغبة في طلب العمل

(١) ذكره النووي في: **المجموع**: (١: ٨٠)، والخطيب البغدادي في: **الفقيه والمتفقه**، **والموسوعة الفقهية الكويتية**: (١٤: ٢٤٥).

والتفقُّه في الدين، ولكنها ربما استعجلت الوصول إلى الهدف دون إعداد العدَّة له.

الفئة الأخرى هي تلك الفئة، ذات التوجُّه الآخر، التي نهجت مبدأ «افعل ولا حرج». وهذا نصٌّ محترم مقدَّر، قاله المصطفى ﷺ في الحجِّ، لكنَّ بعض أصحابنا يريدون تعميمه على مناحي الحياة كلِّها، ويصدر هذا منهم، كذلك، دون استناد إلى علم شرعي. ونشاهد هذه الظاهرة قد زادت أو كثرت، ربما بفعل تنامي قنوات الاتِّصال من الفضائيات وشبكات المعلومات، ورغبة بعض هذه القنوات القضائية بتخصيص وقت للدين في برامجها، ودون الولوج في المقاصد، تعمد بعض القوات إلى إثارة الموضوعات ذات الحساسية، وتجعل من بعض أصحابنا من ذوي البضاعة العلمية المتواضعة يخوضون فيها.

من منطلق الرغبة في إبداء الرأي نجد بعضًا منهم يطلق الأحكام المبنية على الرأي، التي ربَّما كان الرأي فيها موجَّهًا من العقل البشري، المحدود بالزمان والمكان والخلفية الذاتية لهذا الشخص، الذي ينبري لمسائل علمية لا سلاح علميًّا معه لها.

يبدو أنَّ هذا نوع من العبث في الدين، دون الولوج - مرَّة أخرى - في المقاصد فإنَّ علمها عند الله تعالى. ولكنَّنا نملك قدرًا من الفطنة والكياسة والقدرة على المقارنة، التي تمكِّن من معرفة

ما لدى هذا الشخص المخلص من علم شرعي، ويطلب من هؤلاء أنْ يتَّقوا الله تعالى، فلا يُضلِّوا الناس بالآراء والأفكار، التي قد يرون أنَّها تدخل في مفهوم سماحة الإسلام.

☆ ☆ ☆

الوقفة الثامنة:

العَبَث بالأحكام

هذا الدين دين السماحة، ولا أحدَ يشكِّك في ذلك، ولو لم يكن دينًا سمحًا لما كان هذا الإقبال عليه على مرِّ القرون، دون الأديان والملل والنِحل الأخرى، التي تنفق المليارات (بلغت لدى المنصِّرين ما يزيد سنويًا عن ٣٢،٠٠٠،٠٠٠،٠٠٠) دولار، في سبيل تثبيت الناس على هذه الأديان والملل والنِحل، مما دعا هذه التوجُّهات إلى أنْ تسعى إلى الحيلولة دون دخول أتباعها في الإسلام، وهذا أمر يطول الحديث عنه، وهو مبسوط في عدد هائل من الكتب التي تعالج القضية بتفصيل دقيق يحسن متابعته،[1] وهي جهود تتلخَّص في ثلاث نقاط:

١- السعي إلى إدخال المزيد من الأشخاص في هذه النِحل والملل والأديان، سوى اليهودية التي لا تتبع أسلوب التهويد.

٢- السعي إلى حماية أتباعها من الدخول في الإسلام، أو الخروج من دينها وملتها أو نحلتها.

---

(١) انظر: إحصائية التنصير للعام ٢٠٠٣: ٣٢٠ بليون دولار تبرُّعات للأغراض الكنسية.. الكوثرمج ٣ ع ٤٢ (صفر ١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٢م).. ص ٣٤.. نقلاً عن نشرة أبحاث التنصير الدولية International Bulletin of Missionary Research.

٣- السعي إلى منع الآخرين ممن لا ينتمون، بالضرورة، إلى هذه الملل والنِحل من الدخول في الإسلام.

هذا دليل قوي على سماحة هذا الدين، وقدرته، بقدرة الله تعالى، على تحقيق التطلُّعات الروحية والمادية للإنسان مما يحقِّق له الأمان النفسي والاستقرار الاجتماعي.

لا بُدَّ من التوكيد، دائمًا، على سماحة هذا الدين. وكان هذا الطرح هو الغالب على هذه الوقفات، فتأتي هذه الوقفة لتؤكِّد على ذلك، ثم إنَّها تؤكِّد، كذلك، على التفهُّم الكامل لمفهوم السماحة التي تقوم على الاعتدال والوسطية، ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنتَ عَلَيْهَا إِلاَّ لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلاَّ عَلَى الَّذِينَ هَدَىٰ اللَّهُ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾(البقرة ١٤٣).

علماءُ الأمَّة يدركون مدى الاعتدال والوسطية، ومن ثمَّ فهم يدركون معنى التشديد والتسيُّب، فلا التشديد مطلوب، ولا التسيُّب، باسم السماحة والاعتدال والوسطية، مطلوب. فهناك حدود لهذه المفهومات، تُفهم بالتعلُّم لا بالحدس أو تحكيم العقل الفردي المحدود دائمًا. وعليه فإن التبشير بسماحة الإسلام

واعتداله ووسطيَّته مطلب مُلِحٌّ، ولكن من أولئك الذين أعطاهم الله تعالى الفقه في ذلك، بعد العلم فيه.

لعلَّه لا يفهم من هذا الحجرُ على الأمَّة، ولكنه الأولى أنْ يفهم أنَّ هناك أصحابًا لنا قد أساؤوا إلى الإسلام، باسم السماحة والاعتدال والوسطية، فمالوا، بحسن نيَّة غالبًا، وبسوء طوية نادرًا، إلى تخطِّي بعض الأحكام، لاسيَّما أحكام المنع، وسعوا إلى الالتفاف حولها. ويصدق هذا في العبادات وفي المعاملات، بما فيها البيوع.

إذا كان الغلوُّ والإفراط في التشديد يولِّد غلوًّا وإفراطًا في التسيُّب، فإنه في الوقت نفسه يتأكَّد أن الغلوَّ والإفراط في التسيُّب قد يولِّد غلوًا وإفراطًا في التشديد، ولكل فعل ردٌّ فعل.

إذا كان المرء، أو جماعة من الناس، ترغب في ارتكاب معصية، فإن ذلك وارد على مرِّ القرون، ولكنها معصية لا تسوِّغ تحويلها إلى غير معصية، بحيث يكون هذا الفعل مباحًا بحجَّة سماحة الإسلام واعتداله ووسطيَّته، إذ إنَّ هناك أمورًا مقرَّرة محسومة، واضحًا فيها الحكم.

الذي يحصل، أحيانًا، أنَّ هذا المرء، أو هذه الجماعة، يقرُّون بالمبدأ من أنَّه معصية، ولكنهم يخرجون الفعل الذي يرغبون في

ارتكابه من هذا المفهوم. وهذا، مع أنَّه معصية، إلا أنَّه أهون من أولئك الذين لا يرون أنَّ هذا الفعل بذاته معصية، من خلال المفهوم نفسه، مما قد يدخل في إباحة ما حرّم الله. والمهم في هذا كله النزوع إلى سماحة الإسلام واعتداله ووسطيَّته، والتوكيد على ذلك، بالمفهوم الشرعي لذلك، لا بالمفهوم الذاتي.

☆ ☆ ☆

الوقفة التاسعة:

العبث بالمعتقد

منذ الخليقة، وفي بداياتها، والإنسان إذا رزق بالمولود تكوَّنت عنده عناصرُ ثلاثة هي: البخل والجبن والخوف على المواليد، ولذا جاء في حديث المصطفى ﷺ أنَّ الأولاد مجبنة مبخلة،[1] أو كما قال عليه الصلاة والسلام. **ولامرئ القيس** بيت من الشعر يبيِّن فيه العبث الذي كان يعيشه على الواقع، أو من خلال الشعر يطوِّع فيه الخيال، ويهمُّنا فيه أنَّه كان يشغل المرأة عن مرضعها ذي الحول الواحد، وقد علَّقت عليه التمائم،

فمثلُكِ حُبْلَى قَدْ طَرَقْتُ ومُرْضِعٌ
فألهيتُها عَنْ ذِيْ تمَائمَ مُحْوِلِ

مما يعكس صورة من الصور العقدية والاجتماعية في العصر الجاهلي، حينما كان الناس يعلِّقون التمائم على أولادهم، خوفًا عليهم من العين، والعين حقٌّ. وهي واقع ملموس، يُصاب بها بعض

(١) نصُّ الحديث: «**إن الولد مبخلة مجبنة**». رواه ابن ماجه في كتاب الأدب، باب بر الوالد والإحسان إلى البنات. حديث رقم: ٣٦٥٦. ورواه الإمام أحمد في المسند، مسند الشاميين. حديث رقم: ١٦٩٠٤.

الناس، فتكون لها تأثيراتها القوية أو الضعيفة، بحسب قوَّة العين وضعفها. ونحن مطالبون باتِّقائها بذكر الله تعالى، والأوراد الواردة عن المصطفى محمَّد بن عبدالله ﷺ، وعن علماء الأمَّة، سلفهم وخلفهم.

هذه الأدعية والأوراد لا تنافي التوكُّل على الله تعالى، وهي تنبئ عن صفاء في العقيدة، وقوَّة في الإيمان، وتوكيد على التعلُّق بالله تعالى، في السرَّاء والضرَّاء. وكلَّما ضعفت العقيدة في النفوس لجأ الإنسان إلى أساليبَ تُنافي التوكُّل، ولا تحمي من العين، مثل التمائم التي تعلَّق على الصدور، أو توضع تحت الوسائد، أو تُعلَّق في البيوت أو السيارات والمركبات الأخرى، مما يقي من العين، أو يجلب الحظ! وعلمُنا القائم على صحيح العقيدة أنَّها لا تنفع ولا تضرُّ، إلا ضررًا يأتي من الاتِّكال عليها، ويفضي إلى خلل في المعتقد.

في بعض المجتمعات الإسلامية كثُرت التمائم، توضع في أماكن مختلفة، ومنها السيَّارات، تعلَّق فيها، خارجها أو داخلها. وكنت أراها بكثرة في بلد إسلامي شرقي آسيا، لا تكاد مركَبة تخلو منها، سواء أكانت مركبةً تسير آليا، أم تجرُّها الدوابُّ. ولكثرة هؤلاء الوافدين من تلك البقعة من العالم الإسلامي في منطقة الخليج العربية، ظهر في الآونة الأخيرة تفشِّي هذه

الممارسة، المتمثِّلة في تعليق سرائح من القماش الأسود على السيَّارات، فظهر بيانٌ من وزارة (المواصلات) النقل في المملكة العربية السعودية، تُنبِّه فيه إلى ضرورة نزع هذه التمائم من السيَّارات، لمنافاتها للعقيدة الصحيحة، التي تعتمد على الله تعالى في درء أي ضرر قد يُحدِق بالإنسان، ثم تعمد إلى الدعاء المأثور، مثل دعاء الركوب، ودعاء السفر، والأوراد المأثورة.

أكبرتُ هذا من وزارة النقل، التي تجاوبت فيه مع الرئاسة العامّة لهيئة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. وقدَّرت هذا للوزارة وللرجال العاملين فيها، ممن يهمُّهم أن تظل هذه البلاد صحيحةَ العقيدة خاليةً من أيِّ شائبة أو خلل، حتَّى لو ظنَّ الآخرون أنَّ في تعليق التمائم نظرةً ظاهرية، لا تعني التعلُّق بهذه التمائم، التي تُتَّخذ، أحيانًا، تقليدًا لمسلمين آخرين، وربَّما لغير مسلمين، يعلِّقون بعض الأشياء في بيوتهم أو سياراتهم، مثل حدوة الحصان أو ذيل الأرنب، ونحوها مما لا داعي له ولا مبرِّر لوجوده، إذا ما سعينا إلى توعية الناس بضرورة التوكُّل على الله تعالى في السرِّ والعلن، ثم اتِّخاذ الأسباب الشرعية التي تقي من العين، وستقي من العين - بإذن الله تعالى -، وما يحصل بعد ذلك فابتلاء من الله تعالى، وعلينا تجاهه الصبر والاحتساب والعلاج، الذي قال عنه فقهاء الأمَّة: «يجوز التداوي اتِّفاقًا، ولا ينافي التوكُّل».

في هذا السياق ذاته، تنتشر في بعض الحواضر الإسلامية مجموعة من الأضرحة، لأناس كان أغلبهم من الأولياء والصالحين، الذين كان لهم أثر على مجتمعاتهم، فكان أنْ رأى الناس أنْ يكرموهم بعد مماتهم، فأقاموا لهم الشواهد والأضرحة والقباب، وزيَّنوها بزينة البلاد، من الورود والزهور والعطور والحلي.

﴿ وَكَذَلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوا أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ السَّاعَةَ لا رَيْبَ فِيهَا إِذْ يَتَنَازَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ فَقَالُوا ابْنُوا عَلَيْهِم بُنْيَانًا رَبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَىٰ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا ﴾ (الكهف ٢١). ويدفع الفقراء للأضرحة أكثر مما يدفع لها الأغنياء، وتذبح عندها الأنعام، ويتبرَّك بها الضعفاء أكثر من الأقوياء، والفقراء أكثر من الأغنياء، وظنَّ بعض الناس أنَّها يمكن أنْ تجلب البركة، أو أنَّها تدفع الضرر، أو أنَّها تغيِّر الأحوال.

☆ ☆ ☆

الوقفة العاشرة:

العبث بالعقل

المعلوم، فيما يتعلَّق بالغلوِّ في تقدير الأشخاص، اعتقادًا، أنَّ المزارات والمشاهد والأضرحة دخيلة على المفهوم الإسلامي وأنَّ هذا التقرير أدَّى إلى الإفراط في ذلك، مما نتج عنه تعطيل للعقل من ناحية، واللجوء إلى الفصل بين الحياة بماديِّتها، والروح بما توفِّره من أمان، الأمر الذي لا نقرُّه نحن المسلمون بحال. ومما يدخُل في هذا النطاق متابعة المشعوذين في كل مكان، والأخذ على أيديهم، وكفُّ الناس من شرورهم، لاسيَّما أنَّهم يتعاملون مع المرضى وأهل المريض، ويزعمون أنهم يُشفونهم مما هم فيه من أمراض، هي في الغالب نفسية.

المشكلة في هذا الأمر أنَّ اللجوء إلى المشعوذ، إذا ثبتت شعوذته، مُخِلٌّ بعقيدة المسلم، الذي يلجأ إلى أشخاص، لا يستخدمون قدراتهم العلمية في تشخيص الأمراض واقتراح العلاج، آيًّا كان نوع العلاج. إنَّما سُمُّوا بالمشعوذين لأنهم يخدعون العقول والأفهام، ولا يملكون في الواقع القدرة على العلاج، إلا أنْ يستعينوا بقوىً أخرى، وهذا قليل جدًّا فيهم. ووجوده لا يسوِّغ وجودهم، وسعيهم إلى فتح أبوابهم للمصابين وأهاليهم، فالمسألة،

هنا، تعود إلى الاعتقاد بأنَّ الله تعالى هو الشافي. واعتمادنا كليَّةً في الاستشفاء على الشافي - سبحانه وتعالى - لا ينفي التداوي، لأنَّ التداوي يدخل في مفهوم اتِّخاذ الأسباب. ولكنَّ التداوي إنَّما يكون بعلمية، وليس باللجوء إلى ممارسات تنافي التوكُّل، وبالتالي تُدخِلُ خللاً في عقيدة المسلم باتِّكاله على هذا المشعوذ أو ذاك.

المشعوذون موجودون في كلِّ مكان، وكانوا موجودين من قبل، وسيوجدون فيما بعد، ذلك أنَّ أوَّل مسوِّغ لوجودهم حصولهم على عوائدَ مالية كبيرة، لكنها غير طيِّبة، ولا مباركة، مقابل مجهود محدود جداً، لا يعتمد على العلم أو التجربة، أو ما إلى ذلك.

من المهمِّ، هنا، هو عدم التعميم في الحكم، بحيث يقال: إنَّ كلَّ من تعامَلَ مع الأمراض النفسية أو المسِّ، يكون من المشعوذين، ذلك أنَّ هناك أناساً خيِّرين قريبين من القرآن الكريم، في تطبيقه على حياتهم الخاصّة، وهم ذوو تُقىً وورع، ويرقون الناس المرضى بالقرآن الكريم فقط، ثم بالأدعية المأثورة، التي هي، أصلا، تنطلق من منطلق عقدي قوي راسخ، يعتمد على أنَّ الشافي الأوَّل والأخير لكل الأمراض، عضويِّها ونفسيِّها، إنَّما هو الله تعالى، ومن توكَّل على الله تعالى كفاه.

الرجوع إلى هؤلاء الأتقياء الورعين الأحياء إنَّما هو من الأخذ بالأسباب، تماماً كما نتردَّد على الطبيب المؤهَّل علمياً،

والمتخصِّص في مجال من مجالات الطبِّ البشري والنفسي، إنْ لم يكن ذلك الورع والتُّقي أقوى سلاحًا من الطبيب نفسه، لأنَّ سلاحَه في علاج المرض هو **القرآن الكريم**.

لعله من المناسب الدعوة، إعلاميًا ودعويًا وتوعويًا، للمشعوذين أنْ يقلعوا ذاتيًا، وأنْ يتوبوا إلى الله تعالى، وأنْ يبتغوا الرزق من طُرقه المشروعة، وهذا مؤشِّر على قوَّة العقيدة في نفوس المسلمين، الذي سيؤدِّي إلى التقليص من التردُّد على المشعوذين، فتبور سلعة من أصرَّ منهم على هذا النهج، فيزولون تدريجيًا من المجتمع، مع الأخذ في الحسبان أنَّهم باقون كما كانوا من قبل، لكن نسبتهم سوف تقلُّ كثيرًا مع التوعية لهم هم أوَّلاً، ثم للمسلمين عمومًا.

لا بدَّ من أنْ يُعَدَّ هذا العامل في التعلُّق بالأموات من أبرز العوامل وأهمِّها في ضعف المسلمين بعامة، وبالتالي، فإن التصحيح مطلوب. وهو تصحيح صعب، لكنه غير مستحيل، وبطيء جدًا، ولكنه مع بطئه يتقدَّم. ولن أنسى موقف ذلك الطالب الزميل الذي يدرس في الولايات المتَّحدة الأمريكية، وعند نهاية دراسته طرح على زملائه مشكلته عند عودته إلى أهله، وإجبارهم له على المرور على الوليِّ الفلاني المتوفَّى، حال وصوله إلى بلاده، ليتلقَّى منه البركة، ويحميه من الحسد والعين والشرِّ.

كل ذلك بمقابل، تدفعه الأسرة الفقيرة، وذكر أنَّه إنْ لم يفعل ذلك عدَّه أهله مارقًا من الدين! أو أنَّه قد جاء بدين جديد.

إذا كانت المزارات والأضرحة سببًا من أسباب ما وصلت إليه الأمَّة في مجملها من هوان، فإن هناك أسبابًا أخرى لا تقلُّ أهمية عن هذا الضعف، الذي اعترى المجتمع المسلم، مما أدَّى إلى بروز ظاهرة الإلحاد، والبحث عن أفكار أخرى، قد يكون بعضها باسم الدين، ولكنها لا تعدو أنْ تكون تشويهًا لمفهوم الدين. والكتابات في هذا الموضوع كثيرة ومتعدِّدة، وتحتاج منا إلى رصد وراقي «ببليوجرافي» لبيان العوامل كلها، وهذا عمل الباحثين والعلماء والأكاديميين.

☆ ☆ ☆

الوقفة الحادية عشرة:

العبث بالعاطفة الدينية

كنتُ أزور عدداً من المزارات والأضرحة، في عواصم عربية إسلامية، لا للبركة، ولا لدفع ضرر، ولكن لمعرفة ما يدور فيها، فإذا بالناس قد أقاموا حلقة عند هذا الضريح، أو ذاك، وكان الوقت بعد عصر يومِ الجمعة، حيث ساعة الاستجابة. وعندما أُدخلت داخل أحد هذه الأضرحة وجدت الناس يحومون حوله، كما يطوف المسلمون حول الكعبة المشرَّفة، ويدعون صاحب الضريح، كما يدعو المسلمون اللهَ تعالى، موحِّدين إيَّاه، وإذا بامرأة خلفي تقول لصاحب الضريح، وهو ميِّت من عشرات السنين: إن عندها بنتين وتريد ولدين!

خرجتُ لمتابعة الحلقة، وإذا الناس يطبلون ويرقصون، مثيرين الغبار من حولهم، وإذا بالسائح الأجنبي، وبيده آلة التصوير الصامتة والمتحرِّكة، يسجِّل هذا المشهد على أنَّه رقص ديني، وعلى أنه من العبادة. وإذا الوجوه، التي تحوم وتصول وتقفز وتخفض، وجوهٌ بانَت عليها النضارة، وظهرت عليها سمة الثقافة، لكنها تخلَّت عن العلم وعن الثقافة، بل إنَّها تخلَّت عن المنطق

والعقل، وجاءت، مدفوعةً بعاطفة غير موجَّهة، إلى هذا المشهد على أنها تعبد الله من خلال هذا الضريح: ﴿**أَلا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلاَّ لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ**﴾(الزمر ٣).

لأنِّي كنتُ ألبس الثوب العربي فإنَّ بعضًا من سدنة الضريح لم يرحِّبوا بي، وكانوا يخشون أنْ أنفجر بإنكار هذا المنكر، وأصيح بالناس أنَّ صاحب هذا الضريح لا يضرُّ ولا ينفع، وأنَّ مَن هو خير منه بمراحل عديدة، سيِّدنا **محمَّد بن عبدالله** ﷺ عندما مات، توقَّف نفعه المباشر: «من كان يعبد محمَّدا فإنَّ محمَّدا قد مات، ومن كان يعبد الله فإنَّ الله حي لا يموت».. رضي الله عن **أبي بكر الصديق**. صفت عقيدته، فصدح بها بكل وضوح.

لم أجرؤ على الإنكار المباشر؛ لأنِّي قد توقَّعت النتيجة، وأدناها أنْ أُرمى بعيدًا عن الضريح والحلقة، كما رُمي من هو قبلي. وأيقنتُ، ولا أزال، أنَّ أمام المسلمين طريقًا طويلاً، وغير مباشر، لتصحيح مسارهم العقدي، ومن ثمَّ تصحيح حياتهم، وفهمهم لها، ولسرِّ وجودنا فيها. عندها ستصلح أمور كثيرة جدًّا على مختلف الأصعدة، فلا يصلح آخر هذه الأمَّة إلا بما صلُح به أوَّلها. وأوَّل هذه الأمَّة لم تكن تقيم الأضرحة، ولا المزارات، ولا

المشاهد، ولم تكن تعامل الأولياء والصالحين، بعد مماتهم، إلا بالدعاء لهم واقتفاء آثارهم، ما اقتفوا آثار مورِّثهم العلمَ سيِّد البشر نبيِّنا محمَّد بن عبدالله ﷺ. والطريق الطويل يبدأ بخطوة إلى الأمام في تصحيح المسار.

هاتفني أحد الذين اطَّلعوا على هذا الطرح، وعرف الضريح الذي زرته، وذكر لي عنه قصَّة طريفة، تدور حول مجيء أحد الناجين من هذه الاعتقادات، وسلبه للقطيفة الخضراء التي يُغطَّى بها الضريح، وخروجه بها منه. وعندما لاحقه سدنة الضريح، المنتفعون المباشرون من فساد عقائد الناس، قال لهم: ما لكم تلحقون بي؟ قالوا له: القطيفة يا ابنَ ال...!. فقال لهم: لقد طلبتها من وليِّكم فلان، فأعطانيها، ألستم تطلبون منه جلب المنافع ودفع المضارِّ؟ طلبت منه القطيفة أغطي بها أولادي عن البرد، فما الغرابة في ذلك؟ إنَّكم تعترضون على إرادة الولي فلان، وسمَّاه، ولا أسمِّيه هنا؛ لئلا أغضب أهل الديار التي هو فيها، فليسوا كلُّهم راضين عن هذا الضريح، وعن التبرُّك به، واعتقاد نفعه وضرره، مما قد يدخل في الشرك الأكبر المخرج من الملَّة.

كأنَّ صاحبنا بهذا يذكِّرهم بموقف سيِّدنا إبراهيم الخليل عليه السلام عندما هدم أصنامهم، وعلَّق الفأس على كبيرهم، فلمَّا أحضروه، وسألوه، بعد أنْ استدلُّوا عليه: ﴿**قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ**

﴿إِبْرَاهِيمُ ﴿٦٠﴾ قَالُوا فَأْتُوا بِهِ عَلَىٰ أَعْيُنِ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ ﴿٦١﴾ قَالُوا أَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ ﴿٦٢﴾ قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِن كَانُوا يَنطِقُونَ﴾ (الأنبياء: ٦٠-٦٣). لقد أنعم الله علينا في هذه الديار بالمعتقد الصافي، حتى عندما نزور سيِّدنا **محمَّد بن عبدالله** ﷺ إنما نزوره للصلاة والسلام عليه والدعاء له، والدعاء إلى الله تعالى، وليس إليه، عليه الصلاة والسلام، أن يكون شفيعًا لنا يوم القيامة. وقد وفَّقنا الله إلى قيادة سياسية وعلمية لم تترك مجالا للبدعة والخرافة والتبرُّك بالآثار، التي تكون حول قبور الصالحين. وهي عند غيرنا موارد اقتصادية وسياحية، تدرُّ أموالا طائلة، لكنها أموال غير طيِّبة، والله سبحانه وتعالى طيب لا يقبل إلا طيِّبًا.[1]

يذكر **ابن الفوطي**، في كتابه: **تلخيص مجمع الآداب في معجم الألقاب**، في ترجمته لأحد من ترجم لهم. وهو الناصر، في القرن السابع الهجري، أنه خرج ليبول ـ أعزَّكم الله ـ في مكان ما، فقرَّر أحدهم إقامة مشهد على المكان الذي تبوَّل فيه هذا الرجل.[2] ومهما كان الصالحون صالحين إلا أنَّنا مطالبون

(١) ونصُّ الحديث: "إن الله طيِّبٌ لا يقبل إلا طيِّبًا". رواه مسلم في كتاب الزكاة، باب قبول الصدقة من الكسب الطيِّب وتربيتها. حديث رقم: ١٦٨٦.

(٢) ابن الفوطي. **تلخيص مجمع الآداب في معجم الألقاب** ٤ (١): ٢٤١.

بالاحتكام في هذه الأمور إلى المعتقد الذي نسير على هديه جميعًا، في زمن مضى، وفي زمن قائم، وفي زمن يأتي، ويقوم على كتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ.

لعلَّ من أسباب تأخُّر العالم الإسلامي اليوم الاعتماد على هذه المشاهد والمزارات والأضرحة، والوصول بها إلى أنْ تُعبد من دون الله، سواء أكان مَن فيها رجلا صالحًا مقبورًا، أم امرأة صالحة، أم أثرًا من آثار رجل صالح، ذلك أنَّ الأمر عند بعضنا يخرج من مجرَّد تقدير الصالحين، إلى الغلوِّ في تقديرهم، إلى حدٍّ مزاحمتهم للمعتقد المقبول لعقل الإنسان.[1]

العجيب أن يتعطَّل العقل، هنا، عندما يأتي الحديث عن المشاهد والمزارات والأضرحة، وما إلى ذلك من مناظر، تسيء إلينا أكثر مما تحسن. ونحن بحاجة إلى تقدير الصالحين بمفهومنا نحن عن الصالحين، وعن التقدير، لكننا لسنا بحاجة إلى أنْ نزيد في هذا التقدير إلى درجة تصل إلى الشرك، دون أنْ يشعر بعضنا أنَّه يشرك مع الله تعالى أحدًا من الصالحين، وإذا كان هذا الحال مع الصالحين، فالحال مع غيرهم، في هذه المسألة، من باب أولى.

(١) انظر في البحث عن أسباب تباطؤ المسلمين في هذا الزمان: شكيب أرسلان. **لماذا تأخَّر المسلمون وتقدَّم غيرهم؟**/ تقديم محمَّد رشيد رضا؛ مراجعة خالد فاروق. ـ القاهرة: دار البشير، ١٩٨٥م. ـ ١٦٢ ص.

هناك نوادر حول المشاهد والمزارات تنبئ عن إمكانية الاحتيال على الطيِّبين، واستجلاب مقدَّراتهم المادِّية، وبيع الحظوة لدى الصالح في المزار والمشهد، مما هو، الآن، شائع بين كثير من الناس، لاسيَّما أولئك الذين يهمُّهم أمر العقيدة، وكلنا يهمُّنا أمرُ العقيدة، وتعميم العقيدة الصحيحة بين المسلمين في كل مكان.

نعلم أنَّ هناك أشخاصًا يتاجرون بالمشاهد والمزارات والأضرحة، بحيث أصبحت هذه البقاع موردًا ماليًا مربحًا ربحًا سريعًا، ولكنه ربح غير طيِّب، فلا يكون له أثر على المنتفعين من ورائه، بل ربما كان وبالاً عليهم. ولا يُعلم أنَّ المال غير الطيِّب يجلب نفعًا، مهما تخيَّل جانوه ذلك. ولا يحتاج الأمر إلى أكثر من بعض المظاهر التي يُزيَّن بها المزار أو المشهد أو الضريح، وتطييبه بالطيب الرخيص، وتنظيفه، وما إلى ذلك من وسائل الصيانة والنظافة، وقد يضاء للزيارات الليلية، وهكذا.

حبَّذا لو واجهنا هذه المسألة علميًا، مستندين إلى الأحكام الشرعية في هذا، وليس إلى الأعراف والتقاليد، التي يبدو عليها أنَّها استمرأت هذا النوع، وجعلته جزءًا من العبادة، وانقادت إليه عاطفيًا، بحيث يصعب، الآنَ، الاعتراض على هذا الأسلوب. ومن هنا تأتي الدعوة إلى النظرة العلمية الهادئة المتروية، التي تتعامل مع العقل والنقل، بعيدًا عن التشنُّج، والتسفيه المباشر للناس،

فالكثير منهم، على ما يبدو، قبلوا هذه الممارسات على أنَّها جزء من الدين، ولديهم القابلية للاقتناع، إذا أُحسِن التعامُل معهم، في الخطاب والحوار والعقل.

القصد من ذلك كله الرقي بالمجتمع المسلم بعامة، لُيسهم في بناء الحياة، من منظور لا يغفل الدنيا، ويعمل للآخرة في آنٍ واحد. وبالتالي تواصل هذه الأمَّة مسيرتها الحضارية، بدلاً من هذا التراجُع الملحوظ في إسهامنا في حضارة اليوم والغد.[1]

في هذا السياق، ونتيجةً للعلائق في العقيدة الصافية، وفي زيارة لقصر **الحمراء في غرناطة**، وبعض المعالم الإسلامية في **قرطبة وإشبيلية وطليطلة**، التي تحوَّلت إلى مقاصف أو كنائس، يتأكَّد ما أرمي إليه من الأسباب، إذ يُعَدُّ إخراج المسلمين من الأندلس سنة ٨٩٨هـ/ ١٤٩٢م، وما جرى مع الإخراج من محاكم التفتيش، وإحراق المسلمين، وآثارهم، ومخطوطاتهم، وتنصُّر أعداد منهم اعتقادًا، أو تقيَّة، ثم توالي معالم ضعف المسلمين في الشرق والغرب، كلُّ ذلك كان نتيجةً للبعد عن الدين الحقِّ، واللجوء إلى ملذَّات الدنيا، التي يجسِّدها بوضوح **قصر الحمراء**، الذي ينظر إليه بعض المهتمِّين والسُّيَّاح على أنَّه معلم

(١) انظر: علي عبدالحليم محمود. **التراجُع الحضاري في العالم الإسلامي وطريق التغلُّب عليه**. المنصورة: دار الوفاء، ١٤١٤هـ/ ١٩٩٤م.. ٤٥٦ ص.

حضاري، من معالم العمران الإسلامي. ولكن الدليل المصاحب للزيارة، لاسيَّما الدليل الإلكتروني، الذي ينقل عن المستشرق **إرفنج واشنطون**، الذي أحبَّ **الأندلس**، وكتب عنها أكثر من كتاب ، وأقام في **قصر الحمراء** سنة ١٣١٠هـ/ ١٨٩٢م، ليدرس جهود المسلمين في العمارة والحضارة، لا يُخفي ما مرَّ به بعضُ الخلفاء والولاة والأمراء من ترف، على حساب الاستمرار في التنمية والبناء، ونشر الدعوة، أدَّى في النهاية، كنتيجة، إلى إخراج المسلمين من الأندلس.[١]

☆ ☆ ☆

(١) انظر: نجيب العقيقي. **المستشرقون: موسوعة في تراث العرب، مع تراجم المستشرقين ودراساتهم عنه منذ ألف عام حتَّى اليوم**.. ٣ مج.. ط ٤.. القاهرة: دار المعارف، (١٩٨٠م).. ٣: ١٣١.

الوقفة الثانية عشرة:

العَبَث في الوجود

من العبث الروحي، في عمومه، السعي إلى اكتناه الوجود، وما سمِّي لدى الفلاسفة بعبث الوجود. وهذا مفهوم أدَّى إليه عدمُ إدراك الوجود، فذهب الباحثون عن الحكمة إلى مفهومات شتَّى، كلها تدخل في مفهوم العبث، وإنْ بدا على بعضها قدر من العقلانية، التي تترجم قدرات عقلية ذاتية محدودة بالمكان والزمان والعقل نفسه، إلا أنَّها محاولات جادَّة، مع أنَّها أدّت في النهاية إلى مفهوم العبث في نتيجتها، ويقول لنا المناطقة: إنَّ النتيجة القائمة على مقدِّمة خاطئة تكون هي - بدورها - خاطئة، وينبني عليها سلوكيات خاطئة.

البحث عن الحكمة أمرٌ مشروع، وهي ضالَّة المؤمن أنى وجدها فهو أحق بها. والله تعالى ﴿ **يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَن يَشَاءُ وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُوْلُوا الأَلْبَابِ** ﴾ (البقرة ٢٦٩). والذي ظهر للعالم، قديمه وحديثه، أنَّه بدت هناك مبالغات في طلب الحِكمة، منذ اليونان والرومان إلى يومنا هذا، وظهر من يحمل بيده مصباحًا في وضح النهار يبحث عن الحِكْمة.

في سبيل البحث عنها ربَّما خرج المرء المفكِّر العبقري عن المألوف، وأطلق نظريات حول الوجود، لأنَّه لا يعلم حقيقة الوجود، أو لأنَّه يتجاهل حقيقة الوجود، ولا اعتبار للفريق الثاني الذي يريد أنْ يتجاهل حقيقة الوجود.

من منطلقنا نحن المسلمين أنَّنا ندرك حقيقة الوجود، ولا نحتاج في معرفته إلى التنظير، ولا إلى المصابيح في وضح النهار، وندرك أنَّه وجود من موجِد، والذي أوجده أقوى منه، فهو القادر وحده على وجوده من العدم، وهو القادر وحده على العدم بعد الوجود، لاسيما أنَّنا نوقن، تمامًا، أنَّ الوجود المتمثِّل في الحياة الدنيا مؤقَّت وزائل، والوجود المتمثِّل في الحياة الآخرة دائم مستمرٌّ، وبالتالي فإنَّنا ـ نحن المسلمين ـ نعمل للوجودين المؤقَّت والدائم، ولا نغلِّب أحدهما على الآخر، إلا ما يحصل من رغبات ذاتية لدى أفراد آثروا تغليب السعي على الوجود الدائم، ليس على حساب الوجود الزائل، ولكنه مجرَّد تغليب.

لأنَّنا كُفينا معرفة حقيقة الوجود، بالنصوص الشرعية من القرآن والسنة، رأى بعض علمائنا أنَّ البحث في الوجود إنَّما يدخل في مفهوم العبث، حتى لكأنَّك تعلم أنَّ واحدًا مضافًا إلى مثله يساوي اثنين، ولكنك تظل مع هذا تبحث عن النتيجة، لأنك تريد أنْ تتوقَّع أنَّها قد تساوي واحدًا ونصفًا أو اثنين ونصفًا أو

ثلاثة ... وهكذا. وإنَّما يقال ذلك ضربًا بالمثل، تريد منه أنْ تشكِّك من تخاطبه في حقيقة ثابتة لديه، على طريقة بعض الفلاسفة، من أمثال الفيلسوف الفيزيائي الرياضي **ديكارت** (١٥٩٠ ـ ١٦٥٠م)، الذي اعتمد مفهوم الشكِّ المنهجي، وتحديد منطق الرأي الواضح الصريح المبني على الحدس والاستنتاج.(١)

تبع هذا أنْ كره بعضُ علمائنا الفلسفة، ونفروا منها، ونفّروا الناس منها، عندما رأوا أن الحاجة إليها ليست قائمة، وأنَّ في النصوص ما يوصل إلى الحكمة، مما لا يُحتاج معه إلى الفلسفة. ومع هذا وجد بيننا، في ماضينا وحاضرنا، من تأثَّر بالفلسفة اليوناينة، ولمع منهم نجوم في تاريخ التراث الإسلامي.(٢) وظهر كذلك من سعى إلى الردِّ على الفلاسفة، وسمّى جهودهم بالتهافُت،(٣) فظهر منا من ردَّ عليه، وسمَّى جهوده في ذلك تهافُت التهافُت.(٤)

---

(١) انظر: **المنجد في اللغة والأعلام**. ط ٢٣. . بيروت: دار المشرق، ١٩٩٨م. . ص ٢٥٤. . (الأعلام).

(٢) انظر: عبدالحليم محمود. **موقف الإسلام من الفنّ والعلم والفلسفة**. . القاهرة: دار الرشاد، ٢٠٠٣م. . ٢٦٢ ص.

(٣) انظر: محمَّد الغزالي، أبا حامد. **تهافت الفلاسفة**/ تقديم وضبط وتعليق جيرار جهامي. . بيروت: دار الفكر اللبناني، ١٩٩٣م. . ٢٣١ ص. وانظر، أيضًا الكتاب بتحقيق سليمان دنيا. ـ ط ٧. . القاهرة: دار المعارف، ١٩٨٧م. . ٣٧١ ص.

(٤) انظر: محمد بن رشد، أبا الوليد. **تهافُت التهافُت**/ تحقيق سليمان دنيا. . ط ٤. . ٢ مج. . القاهرة: دار المعارف، ١٩٩٩م. . ١٠٠٦ ص.

لا تزال طروحاتهم التي طرحوها مجال دراسة في الشرق والغرب، واشتهروا على أنَّهم باحثون عن الحكمة، في مجتمعات لا تزال تبحث عن الحكمة، فكان لهم صدىً في تلك المجتمعات أكثر من الصدى في المجتمعات التي أدركت مصادر الحكمة، فكان **الرازي والكندي وابن سينا وابن رشد وابن خلدون والخوارزمي**، وغيرهم من العلماء الموسوعيين، الذين كانت الفلسفة من اهتماماتهم، ولم تكن هي وحدها اهتماماتهم. ولا تنتهي هذه الوقفة دون التعريج على جهود الفيلسوف الفرنسي **جان بول سارتر**(١٩٠٥ ـ ١٩٨٠م)، في معرفة الوجود، حتى أضحى من روَّاد الوجودية المعاصرين، مما يدخل، كذلك، في مفهوم البحث عن حقيقة الوجود.[١]

☆ ☆ ☆

(١) جان بول سارتر، فيلسوف وناقد فرنسي، من روَّاد الوجودية المتشائمة. قال إنَّ الإنسان مطلق الحرِّية في الاختيار، ثم مال إلى بعض مبادئ كارل ماركس. فاز بجائزة نوبل سنة ١٣٨٤هـ/ ١٩٦٤م، لكنه رفضها. انظر: **المنجد في اللغة والأعلام**. ـ مرجع سابق. ـ ص ٢٨٥. ـ (الأعلام).

الوقفة الثالثة عشرة:

العَبَث بالحق

نحن نؤمن بأنَّ هناك صراعًا أزليًا بين الخير والشرِّ، وبين الحقِّ والباطل. ونحن نؤمن، كذلك، بأننا من دعاة الخير ومن أهل الحقِّ، لأنَّ ما نتبنَّاه هو الحقُّ، إذا ما استطعنا فهمه فهمًا صحيحًا على ما جاء.[1] ولأنَّنا نؤمن بأنَّنا على حقٍّ، وندعو للخير، نؤمن كذلك بأنَّ أهل الشرِّ والباطل موجودون، وأنَّهم على النقيض، تمامًا، من أهل الحقِّ والخير، ونتيجة لذلك يحاولون الحدَّ من انتشار الخير ومن غلبة الحقِّ على الباطل.[2]

الذي ينبغي التوقُّف عنده، هنا، هو أنَّه ليس بالضرورة أنْ يكون كل من لا ينتمي إلى ما ننتمي إليه يُعدُّ عدوًا لنا، ويعدُّ من دعاة الباطل ومن أهل الشر. وعليه فإنه يمكن لنا أنْ نأخذ من الآخرين، كما يمكن لنا أنْ نُعطي، ويمكن لنا أنْ نتأثَّر بالآخرين، كما يمكن لنا أنْ نؤثِّر فيهم. وهذا الأخذ والعطاء والتأثُّر والتأثير

(١) انظر: عادل محمَّد صالح أبو العلا. **الصراع بين الحقِّ والباطل كما جاء في سورة الأعراف**. - الرياض: مكتبة الملك عبدالعزيز العامة، ١٤١٦هـ/ ١٩٩٥م. - ٧٩٠ ص.

(٢) انظر: إبراهيم بن محمَّد أبو عباة. **الصراع بين الحقِّ والباطل: وما تخفي صدورهم أكبر**. - الرياض: مكتبة العبيكان، ١٤١٢هـ/ ١٩٩١م. - ٨٥ ص.

لا يعني، بحال من الأحوال، الموالاة لهؤلاء الآخرين الذين لا يشاطروننا ديننا.[1]

كما أنَّ الذي ينبغي التوقُّف عنده، أيضًا، أنَّ هذه المنطقية السالفة لا تحجب وجود فئات من الناس ممن حملت لواء الشرِّ، واتَّبعت الباطل، وسعت إلى حمل الناس عليه، وكل يمكن أنْ يُحكم عليه، من خلال ممارساته وتصرُّفاته. أي أنَّ الأمر يحتاج منا إلى وقفات تقويم، قبل الحكم التعميمي على طريقة: من ليس معنا فهو عدوُّنا. بل يبدو هنا أنَّه ليس كلُّ من هو معنا صديقًا لنا، لاسيما في زمننا هذا، زمن المصالح، الذي تقوم معظم العلاقات فيه على المصلحة ومداها الذي يحدِّد مدى العلاقة.

من هنا ينبغي العدل في النظرة إلى الآخرين، حتى في أحلك الحالات التي يمرُّ بها المسلمون في الفتن والويلات التي تمرُّ بهم. فنحن مطالبون بالعدل والقسط، في كلِّ حال: ﴿**يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ**﴾ (المائدة: ٨).

ليس المراد، هنا، اتِّباع منهج الاعتذار للآخر، أو المنهج التسويغي في تلمُّس القُربة من الآخر، ولكننا نسير على نهج يملي

(١) انظر في مناقشة مفهوم الولاء والبراء: محمَّد بن سعيد بن سالم القحطاني. **الولاء والبراء في الإسلام من مفاهيم عقيدة السلف**. ـ الرياض: دار طيبة، ١٤٠٥/١٩٨٥. ـ ٤٧٦ ص.

علينا أنَّه ﴿مَنِ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ (الإسراء: ١٥)، وهم بوجودهم بين المسلمين يقيمون الحجَّة على المسلمين، فإذا ما بلّغهم المسلمون قامت الحجَّة عليهم. ولذا نجد أنَّ جهودًا طيِّبة هادئة قامت في هذه البلاد، لإقامة الحجَّة على الوافدين عليها من غير المسلمين، فأُنشئت مكاتب توعية الجاليات، ونُشرت بينهم النشرات، التي تبيِّن ما نحن عليه من الحقِّ، وعُقدت الدروس والمحاضرات، يحضرها فئات من العاملين في البلاد، فيهتدي منهم من يهتدي، ويظل منهم من يظل على معتقده، الذي يعتقد فيه أنَّه الحقُّ، وليس عليك هُداهم، وإنَّك لا تهدي من أحببت، ولكن الله يهدي من يشاء.

ليس لدى المسلمين ما يحجبونه عن الآخر، ولا يكتنف ديننا شئ من الطلاسم والرموز، ولا يستأثر أُناس منا بعلم لا يُشاع بين الآخرين، من مسلمين وغير مسلمين، ولذا فإنَّ المعلومات عن الإسلام متاحة للجميع، وللجميع الحقُّ في طرح الأسئلة والاستفسار عن كل دقيقة وجليلة، وعلى العالِمين من المسلمين الإجابة، ويأثم منا من يعلم شيئًا فيكتمه عن الآخرين.

تكون الأسئلة، عادة، مبنية على خلفيات خاطئة، هي في مجملها شُبَهٌ تُثار حول النظام الاجتماعي في الإسلام والنظام

الأمني والنظام السياسي،[1] ولكنَّها مع الشرح الموضوعي والطرح المتجرِّد تزول، ويحلُّ محلَّها الحقُّ، الذي يبحث عنه كثير من العاقلين.

المطلوب المزيد من التقديم والإيضاح و(الاحتكاك) بالآخر، دون شعور بالهوان، أو الدونية، أو الخوف من التأثُّر بدلاً من النزوع إلى التأثير، وهذا لا يتأتَّى إلا بالعلم القوي، وبالإيمان الصادق، وبالثقة المطلقة، وهي تكثر، الآنَ، وتتركَّز في كثير من النفوس.

☆ ☆ ☆

(١) انظر في مناقشة بعض الشُّبه حول الإسلام: أحمد شلبي. **الاستشراق تاريخه وأهدافه، شبهات المستشرقين ضدَّ الإسلام، مناقشتها وردُّها**. . القاهرة: مكتبة النهضة المصرية، د. ت. . ٢١٢ ص.

الوقفة الرابعة عشرة:

العبث بالرقابة الذاتية

في الحديث التاسع عشر من **الأربعين النووية** يصحب **عبدُالله ابن عبَّاس** - رضي الله تعالى عنهما - النبيَّ **محمَّد ابن عبدالله** ﷺ على دابَّة، ونِعمَتِ الصحبةُ، فيستخدم المصطفى - عليه الصلاة والسلام - هذه الرفقة ليعطي الفتى **ابن عباس** بعض الإشارات المهمَّة، التي لم تكن خاصَّة بالفتى ابن عبَّاس، ولكن المعنيَّ بها الأمَّة كلُّها، تأخذ ذلك من الرسول المربِّي ﷺ من خلال الرواة الذين نقلوا عنه، بأمانة متناهية، هذه القواعد التي صدرت عن رسول الله ﷺ.[1]

يمكن أنْ يتركَّز هذا الحديثُ الشريفُ حول الرقابة الذاتية على النفس: «**احفظ الله تجده تجاهك**»، وحفظ الله تعالى يتمُّ بمراقبة الأفعال والأقوال، التي يقوم بها المرء في حياته كلها، الخاصّة والعامّة، ويعرض هذه الأفعال والأقوال على هذا المقياس، أو المعيار أو الميزان الواضح، فما يرضي اللهَ تعالى يمضي فيه المرء، وما يسخط الله تعالى، يحجم عنه.

---

(١) انظر: الحديث التاسع عشر من **الأربعين النووية** عن أبي العبَّاس عبدالله بن عبَّاس - رضي الله عنهما - قال: كنت خلف النبي ﷺ يومًا فقال:... الحديث من رواية الترمذي.

المهمُّ، هنا، هو التركيز القويُّ، في هذا الحديث، على الرقابة الذاتية، ومحاسبة النفس، قبل اللجوء إلى أيِّ شكل من أشكال الرقابات الخارجية، مهما تعدَّدت جهاتها، وتنوَّعت في مصادرها، بين الرسمية وغير الرسمية. وكلما زادت الجهات أو الأنماط الرقابية الخارجية، كان هذا مؤشِّرًا لتردِّي الرقابة الذاتية.

هذا قد يعني ضعف الفهم الدقيق لحفظ الله تعالى، الوارد في الحديث الشريف: «احفظ الله يحفظك»، وبالتالي قد يُفهم هذا الحفظ فهمًا قاصرًا على العلاقة المباشرة مع الله تعالى، من خلال العبادات التوقيفية، المتمثِّلة في الصلاة المفروضة والصوم والحجِّ والزكاة، ثم تُغفل العلاقة مع الله تعالى، المتمثِّلة في العبادات غير المباشرة، إنْ صحَّ التعبير، في السلوكيات والمعاملات والعلاقات، مع البشر ومع البيئة والطبيعة. وكل هذه الأصلُ فيها أنْ تتمَّ في حدود «حفظ الله تعالى»، دون النظر إلى أيِّ مؤثِّرات خارجية.

لا يمكن الاستغناء، تمامًا، عن هذه المؤثِّرات الرقابية الخارجية، إذ إنَّنا بشر نتعرَّض للتقصير في أدائنا، متى ما خفَت فينا الشعور بالرقابة الذاتية، وعدم توفُّر رقابة خارجية. ولكنِّي أرغب في تعميق فكرة الرقابة الذاتية، ولو على حساب الرقابة الخارجية، أخذًا في الحسبان أنَّ الرقابة الذاتية مستمدَّة من مراقبة الله تعالى، في السر والعلن.

من أجمل ما يحقِّقه المرء، في يومه وليلته، أنْ يشعر أنَّه قام بإنجازٍ ما، فيه رضًا لله تعالى، وأنه امتنع عن الإقدام على فعل ما، يُغضب الله تعالى، أيضًا، فينام عندها قرير العين، منطلقًا إلى يوم جديد، يمارس فيه الرقابة الذاتية على أقواله وأفعاله، فينال الرضا الذاتي، ورضا الله تعالى قبل ذلك. وبالتالي يحقِّق المرء قدرًا عاليًا من السعادة المتوخَّاة، التي نبحث عنها جميعًا في حياتنا، وبعد مماتنا. ولا إخال أنَّها تتحقَّق دون أنْ نرضي اللهَ تعالى، أوَّلاً وآخرَ.

☆ ☆ ☆

الوقفة الخامسة عشرة:

العبث في مقاصد الخلق

أوَّل حديث درسناه، في السنة الخامسة الابتدائية هو أوَّل أحاديث **الأربعين النووية**، وهو ذلك الحديث الذي رواه أبو حفصٍ **عمرُ بنُ الخطَّاب** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنَّ رسول الله ﷺ قال: «إنما الأعمال بالنيَّات، وإنما لكل امرئ ما نوى، فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله، ومن كانت هجرته إلى دنيًا يصيبها أو امرأة ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه».[1] من خلال جعْلِ هذا الحديث الشريف منطلقًا لحياة الإنسان، فإنَّه يمضي في طريقه، لاسيَّما إذا قصد في مشيه وجهَ الله تعالى، وهو - سبحانه - الذي سيحاسب الإنسان في النهاية، وهو - سبحانه - وحده الذي يعلم النوايا.

لا يحقُّ لامرئٍ من الناس أن يعبث في مقاصد الناس، ويفسِّر أعمالهم بموجب تصوُّره هو عن مقاصدهم؛ لأنه يبني، حينئذ، نتيجةً على مقدَّمةٍ خاطئة. وترى بعض الناس يقفزون إلى النتائج،

(١) الحديث رواه البخاري في كتاب بدء الوحي، باب الوحي، حديث رقم: ١، ورواه مسلم بلفظ "بالنية"، في كتاب الإمارة، باب قوله ﷺ: إنما الأعمال بالنية". حديث رقم: ٣٥٣٠.

دون أنْ يعلموا النوايا، فيتَّهمون الآخرين الذين يمارسون عملا من الأعمال، عامًّا كان أم خاصًّا، فينطلقون في حكمهم عليه عن سوء الظن، قبل إنْ يحسنوا الظن بالمرء وبأفعاله، وما يكاد يظهر خبرٌ إلاَّ ويبحثون من ورائه عن دوافعه المبنية، عندهم، على سوء الظنِّ.

الأصل عند الإنسان أنَّ الناس جميعًا تسير على حسن الظن بالآخرين، وأننا نحسن الظن بالناس وبأعمالهم، أقوالاً وأفعالاً، ذلك إلى الحدِّ الذي لا يجعل منَّا سُذَّجًا، بحجَّة تغليب حسن الظن، لأنَّنا مُطالبون، كذلك، بأنْ يكون كلُّ واحد منَّا كيِّسًا فطِنًا، وأنْ يجمع بين الأمرين.

لدينا أناس نقول عنهم إنَّهم على نيَّاتهم، وأظن أنَّ هؤلاء من أسعد الناس، ذلك أنَّهم لا يلجأون إلى تحميل الأمور أكثر مما تحتمل. على أنَّ لدينا أُناسًا ليسوا على نيَّاتهم، بل إنَّهم يلجأون إلى تأويلات وتحليلات وتفسيرات، ما أنزل الله بها من سلطان، لاسيَّما إذا كانوا قد أساءوا الظنَّ في الشخص، فتراهم يرون أنَّ كلَّ ما يقوم به باطل، ولو كان حقًّا. ويرجعون هذا كله إلى قدراتهم، زعموا، على الغوص في الأحداث، لا النظر في ظاهرها، وهذا عند هؤلاء مؤشِّرٌ للحصافة والفطنة! وهو، عند غيرهم، ضرب من ضروب العبث بالمقاصد.

يتحمَّل هؤلاء وزرًا عظيمًا، هم في غنى عنه، لو أراحوا أنفسَهم، وأراحوا غيرَهم من هذا العناء المتعب لنفسيَّاتهم. على أنَّ هذا ـ في الوقت نفسه ـ إنَّما ينزَع منهم حسنات، ويكسبهم سيئات، ويكسب من أساؤوا الظن فيهم كثيرًا من الحسنات، وقد يصل الأمر أنْ يؤخذ من سيئات من أُسيءَ الظن بهم، فتطرح على أولئك الذين أساءوا الظن بهم، مع أنَّ هذه الفئة قد أحالت كثيرًا من حسناتها لغيرها.

ما دام الأمر كذلك فما الذي يمنعنا من أنْ نريح غيرنا، ونرتاح نحن، ونترك الخلق ونيَّاتهم لخالقهم، ونغلِّب في الوقت نفسه حسن الظنِّ في الناس، وننظر إلى أعمالهم على أنَّها صادرة بحسن نيَّة، وإنْ جانبت الصواب، فالكلُّ يخطئ ويصيب. والخطأ والصواب ليس مؤشِّرًا على النيَّة، حسنةً كانت أم سيِّئة.

لعلَّ في هذه الوقفة ردًّا مباشرًا على أناس غلَّبوا سوء الظن، وصدروا عن سوء نيَّة، دون الإفصاح المباشر بأيِّ سلوك أو تصرُّف، وإنَّما هي مواقف يواجهها العاملون أعمالا عامَّة، أو خاصَّة. وقد يلجأ بعض الناس إلى الدخول في مقاصد الآخرين، التي لا يعلمها إلا الله تعالى، ثم صاحبُها الذي قد يفصح عنها، وربَّما لا يفصح عنها، فكذب على غيره، وأظهر أنَّه يقصد غير القصد الذي قام بالفعل من أجله. وإنَّ المرء منا ليواجه فئة من

الناس أحبَّت الدخول في المقاصد، وقام تفكيرُها على النظرة السوداوية للآخرين، وأضحى هذا مرضًا نفسيًا، يعاقَب عليه صاحبه، لأنَّه يملك التخلُّص منه.

ليس من الحكمة الإفصاح عن بعض الحالات التي نواجهها، ويسعى أصحابها إلى أنْ يملُوا علينا سوءَ ظنِّهم بالآخرين، ويحذِّرونا من التعامُل معهم، بحجَّة أنَّ نواياهم خبيثة. فإذا بحثت في هذا الأمر وتحقَّقت منه، وجدت أنَّ هذا المريض إنَّما يبطن شرًّا لصاحبه، فأراد الوقيعة بينك وبينه، أو أنَّه يبطن الشرَّ لك أنت، فلا يريد أنْ يُبقي لك زميلاً أو صاحبًا، أو أنَّه قد وصل من الناس إلى درجة اليأس والقنوط، بسبب مروره بحالات فردية، وصل فيها إلى التعميم على كلِّ الناس.

مهما حاولتَ تغيير هذا النمط من السلوك فإنَّك تواجَه باتِّهامك أنت بالسذاجة، وعدم الإحاطة بأحوال الناس وعاداتهم السيِّئة، فأحالت هذه الفئةُ من سيِّئي الظن الجوَّ الذي تعيش فيه إلى غابة من الصراع على حُطام الدنيا، رغبة في الانتصار أو الحصول على الحظوة، أو أيِّ منفعة لا تلبثُ أنْ تزول.

لست، هنا، أعمِّم هذا السلوك، فأقع فيما أحذِّر منه هنا، فإنَّ هناك أشخاصًا مستقيمين في تفكيرهم، واقعيين في نظرتهم للآخرين، عمليِّين في تعامُلهم مع من حولهم، يزِنون الناس بميزان

واحد غير متقلِّب، أتاهم الله الحكمة في النظر إلى الأمور. وهم ناصحون إذا استُنصِحوا، مشيرون إذا استُشيروا، مبادرون إذا استُجيب لهم، ينتقدون الأفعال الظاهرة، ولا يدخلون في النوايا، يقوِّمون الأداء، ولا عليهم من المقاصد. هؤلاء حكماء مُطَّلعون ممارسون، فيهم تقوىً، وعليهم سيماء الخوف من الله تعالى أنْ يصيبوا قومًا بجهالة فيصبحوا على ما فعلوا نادمين. ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا أَن تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ﴾(الحجرات: ٦).

الذي لا شك فيه، هنا، أنَّ المقياس في هذا كله هو الإيمان بالله تعالى، فكلَّما قوي الإيمان بالله ضعُف سوء الظن بعباده، وبالتالي ارتاح الناس، وأراحوا غيرهم من تتبُّع مقاصدهم، وبناء أفعالهم على سوء الظن، مهما كانت قريبةً من الصواب. وإذا ضعُف الإيمان بالله تعالى كان للشيطان نصيبٌ وافر من الإنسان، في تصدِّيه لأخيه الإنسان، وفي إيجاد بيئة مريضة، قائمة على الشحناء والبغضاء.

مهما اتَّهم الناسُ الشخصَ المتَّسمَ بحسن الظن، أو تغليب حسن النوايا، وعدم الولوج في المقاصد، مهما اتَّهموه بالسذاجة، و"الطيبة"، و"الحبابة"، و"بياض القلب"، فإنه هو المرتاح أوَّلًا، وهو المُريح لغيره ثانيًا، ينام قرير العين، ويصحو وقد شبع نومًا هادئًا،

يبدأ يومه بتفاؤل وإقبال، وينهيه بحمد الله والثناء عليه، على أنْ يسَّر له حسن التعامُل مع الآخرين. هذا التعامُل المبني على أنَّ الأصل فيهم جميعًا حسن المقاصد، دون أنْ يؤتى من قِبَلِه، بسبب الإفراط في هذا المنحى.

نحن مُطالبون، دائمًا، في نظرتنا للأشياء، أنْ نكون وسطًا، دون إفراط ولا تفريط.[1]

☆ ☆ ☆

(١) انظر: محمود حمدي زقزوق. **الإنسان والقيم في التصوُّر الإسلامي**. . القاهرة: دار الرشاد، ٢٠٠٤م. . ٢٧٠ ص. . (سلسلة مكتبة الأسرة، الأعمال الدينية؛ ١٠).

الوقفة السادسة عشرة:

العبث مع المصطلح

الذين نشؤوا منذ نعومة أظفارهم، نشأةً دينية قوية، قد لا يستسيغون استخدام الكلمة/المصطلح **الربّ** إلا على الله تعالى. وتراهم يتردَّدون في النظر إليها، مستخدَمة في غير ذلك، ولكنَّ الذين تعلَّموا الدين مع نشأتهم، وأضحوا علماءَ فيه، لا يجدون غضاضة في الاستخدام اللغوي، لا الاصطلاحي، للكلمة في أيِّ مقام تطلق فيه، فهناك ربُّ الأسرة، وربَّةُ البيت، وأربابُ الأعمال، وربُّ الإبل، في حوار **عبدالمطَّلب بن هاشم**، جدِّ رسول الله ﷺ، مع **أبرهة**. ولا يرون في هذا الاستخدام أيَّ مزاحمة للإطلاق الاصطلاحي للكلمة، عندما يقال الربُّ والإله يقصد بهما الله تعالى لا غير، مع أنَّ لفظة الإله أضيق في الاستخدام اللغوي من كلمة الربِّ، لما للإله من معنى لغوي فيه تقديس، ولا يقدَّس إلا الله تعالى.

في التعبيرات الأجنبية، التي نقلها بعضُنا معهم، مع عودتهم إلى بلادهم الإسلامية، مما يدخل في هذا المفهوم، تعبير **الإنجيل** (Bible) لأيِّ دليل أو مرجع أو مصدر لمعلومة، يكثر الاستئناس به

في مجال من المجالات، فتجد الواحد منهم يشير إلى هذا الدليل/المرجع بأنَّه إنجيله. وهذا مأخوذ من خلفية دينية، لا شكَّ فيها، عندما يظهر المنصِّرون في الكنائس والأماكن العامّة، وهم يتأبَّطون نسخة من الإنجيل، أو يضعونها أمامهم في مواعظهم، ويعودون إليها، يستشهدون بالآيات الإنجيلية.

أضحى **الإنجيل** ملازمًا للمنصِّر في جميع تحرُّكاته الوعظية، الأمر الذي لا نراه في ثقافتنا الإسلامية القائمة على حفظ كتاب الله، وعدد من أحاديث المصطفى **محمَّد بن عبدالله** ﷺ، ثم يتلوها الواعظ/الخطيب عن ظهر قلب، أو يروي الأحاديث كذلك، دون اللجوء إلى أنْ يتأبَّط كتابَ الله تعالى. وإنْ كنت قد رأيت بعض الوعَّاظ/الخطباء المسلمين، حديثي العهد في الإسلام، يتأبَّطون ترجمة معاني القرآن الكريم، متأثِّرين بذلك بخلفيَّتهم الدينية السابقة.

مهما يكن من أمرٍ فإنَّ هذا التجوُّز في الإطلاق قد لا يكون سائغًا، بل إنَّه لا ينبغي أن ينسحب على القرآن الكريم، بحيث تجد أحدًا - لا قدَّر الله - يُومئ إلى مرجع علمي أو تقني بأنَّه قرآنه، إذ إنَّ القرآن واحد، لغةً واصطلاحًا، وهو من القدسية عندنا، بحيث نتأدَّب معه، حتَّى من الناحية اللفظية. وقد أدعو، هنا، إلى عدم التأثُّر حتى في الاستخدام اللغوي للإنجيل، كما هو

الحال في الثقافة الغربية، على الإطلاق الذي ذكرته؛ لما للإنجيل عندنا من تقدير كذلك، على اعتبار أنَّه كتابٌ سماوي، نزل على **عيسى بن مريم** - عليهما السلام -، والإيمان به جزء من أركان الإيمان لدى المسلمين.

على أيِّ حال، إنَّ التأثُّر بالثقافة الغربية، من حيث مظاهرُها وسلوكياتُها لا يقف عند هذا الحدِّ، وقد ظهرت فيه مؤلَّفات قيِّمة، تستدعي الرجوع إليها في مظانِّها.[1]

مما يدخل في هذا المفهوم، من حيث إطلاق مصطلحات دينية في غير ما اصطلحت عليه، مصطلح "السينت". و"السينت" هو القدِّيس أو القديِّسة، وبالأسباني "السانتا" للأنثى. وهي رتبة دينية، ومنزلة لا يرقى إليها إلا القليلون من المخلصين للكنيسة،

(١) انظر، مثلاً: أحمد عبدالوهَّاب. **التغريب: طوفان من الغرب**. - القاهرة: مكتبة التراث الإسلامي، ١٤١١هـ/ ١٩٩٠م. - ٤٨ ص. وانظر. أيضًا: أنور الجندي. **شبهات التغريب في غزو الفكر الإسلامي**. - دمشق: المكتب الإسلامي، ١٣٩٨هـ/ ١٩٧٨م. - ٤٣١ ص. وانظر، كذلك: حسين سعد. **بين الأصالة والتغريب في الاتجاهات العلمانية عند بعض المفكرين العرب والمسلمين في مصر ١٩٠٠م/ ١٣١٨هـ إلى ١٩٦٤م/ ١٣٨٤هـ**. - بيروت: المؤسَّسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، ١٤١٣هـ/ ١٩٩٣م. - ١٨٤ ص. وانظر، كذلك: عبدالقادر طاش. **الإعلام والتغريب الثقافي**. - الرياض: مؤسَّسة آسام، ١٤١٣هـ. - ٥٥ ص. وانظر، كذلك: محمَّد سليم قلالة. **التغريب في الفكر والسياسة والاقتصاد**. - دمشق: دار الفكر، ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م. - ٢٤٠ ص. وانظر، كذلك: محمَّد عبدالعليم مرسي. **التغريب في التعليم في العالم الإسلامي**. - الرياض: جامعة الإمام محمَّد بن سعود الإسلامية، ١٤٠٩هـ/ ١٩٨٨م. - ٩٢ ص.

بالخدمة والتنصير والعبادة. وإذا أرادوا أنْ ينعتوا شخصًا بالعفَّة والطهارة قالوا عنه: إنَّه سينت، بعيد عن الشهوات، والملذَّات، والانحراف غير الأخلاقي،[1] كما يعبَّر عنه بأنه ملاك.

لقد لفتت هذه الكلمة (Saint) الانتباه بدعاية لأحد العطور في إحدى الصحف المحلِّية، وعادت الذاكرة إلى أيَّام البعثة، حينما كان الواحد منَّا يواجه هذه الكلمة كثيرًا، فتُسمَّى بأصحابِها المدن والشوارعُ، والمعاهدُ، والكلياتُ، والملابسُ، والعطورُ، والجامعاتُ، وغيرها، بل إنَّ الأدوية سمِّيت بأسماء القدِّيسين. فهذا دواء مخفِّض للحرارة اسمه سينت جوزف، القدِّيس يوسف، يوصف للأطفال، بنكهة الفراولة المقبولة، التي تجعل الطفل يمضغ الحبَّة، دون أنْ يشعر أنَّها دواء، ويطلب المزيد، فتنخفض حرارته - بإذن الله .. وقد وصفَه لابني أحد أطباء الأطفال هناك. ولأنَّ الطفل قد قبله تقبَّلتُ الدواء، وغضَّيت الطرف عن الاسم، من باب المرونة والسماحة! وعندما عدت إلى **الرياض** توعَّكت الطفلة، فأخذتُها إلى أحد الأطباء المشهورين، طبيب الأطفال **الزامل**، كما أذكره - رحمه الله تعالى - فذكرت له اسم الدواء، فقال: إنَّ هذا وسيلةٌ من وسائل تقريب الرموز النصرانية إلى الأذهان. وكنت

(١) الذي يظهر أنَّ إضافة غير إلى كلمة الأخلاقي، هنا، هي الأولى، إذ لا يبدو أنَّ هناك انحرافًا أخلاقيًا، وإلا لم يُسمَّ انحرافًا.

أظن أنّي لو وقفت هذا الموقف لرُميت بالتزمُّت والتشدُّد والتشديد. وبالتالي التطرُّف والأصولية، بالمفهوم الدخيل للأصولية![1]

ثم بحثتُ الموضوع بجديَّة، واسترجعتُ المواقف التي مررتُ بها، مثل ما مرَّ بها غيري من قبل حملات **التنصير**. وقرَّرتُ أنْ أكتب بذلك كتابًا عن **التنصير في مفهومه وأهدافه ووسائله ووسائل المساندة وسبل مواجهته**، فجمعت المادَّة العلمية، وخرجتُ منها أنَّ من الوسائل المتأخِّرة، ولكنَّها المؤثِّرة، تأليفَ الأذهان والأنظار على الرموز الكنسية، كالصليب والتسميات للشوارع، والمدن، والقرى، والمدارس، والمعاهد، والملابس، والعطور، والسيارات ونحوها، بأسماء كنسية، ومصطلحات دينية.[2] كم من هذه الأسماء ذات الخلفية النصرانية أضحت علَمًا على بعض المواقع والمنتجات الاستهلاكية.

لا يُلام القوم في تكريمهم لرموزهم الدينية، سواء اتفقنا معهم عليها أم لم نتَّفق، فهذا حقٌّ لهم، ولكننا نُلام نحن إذا ما

---

(١) انظر في مناقشة مفهوم الأصولية الدخيل: زينب عبدالعزيز. **هدم الإسلام بالمصطلحات المستوردة: الحداثة والأصولية**.. دمشق: دار الفكر، ٢٠٠٤م.. ٢٠٠ ص.. (سلسلة صليبية الغرب وحضارته؛ ٤).

(٢) علي بن إبراهيم الحمد النملة. **التنصير: مفهومه وأهدافه ووسائله وسبل مواجهته**.. ط ٤.. الرياض: المؤلِّف، ١٤٢٥هـ/ ٢٠٠٤م.. ٢٤٨ ص.

انسقنا وراء هذه الوسيلة من وسائل التنصير، فألِفت أذهانُنا وأنظارُنا على هذه الرموز، التي لا يدري بعضنا منشأها، ولا المغزى منها.[1]

لقد وصل الوكلاء التجاريون والمورِّدون والموزِّعون للسلع الاستهلاكية إلى قدر من التأثير على المصانع، نظرًا للسوق الرائجة لهذه السلع. أفلا يحقُّ لنا، نحن المستهلكين، أنْ نطالب الوكلاء والموزِّعين والمورِّدين أنْ يُعفوا أذهاننا وأنظارنا من تأليفها على رموز لعقيدة، نعتقد نحن بطلانَها وانحرافَها عن الخطِّ الذي جاءت عليه على يد **عيسى بن مريم** - عليهما السلام -؟ أم أنَّ هذا مطلبٌ فيه صعوبة، كما ذكر لي أحدُهم، عندما طرحت عليه فكرة إزالة علامة الصليب التي توضع على علبة الإسعاف الأولي في بعض السيارات؟! أو في الخرائط التي تُبيَّن فيها مواقع، كالمستشفيات ومراكز الإسعاف والصيدليات، ونحوها.

قد يكون في الأمر إفراط في الحساسية، إلا أنِّي، مع وجود هذا الاحتمال، قد عايشتُ بعض حملات التنصير، إلى القدر الذي لا أستبعد معه أنْ تكون هذه الوسيلة مقصودة، ولو من

(١) كانت هناك ساعة متداولة شعبيًا في الأوساط الخليجية، وغيرها، صناعتها سويسرية قوية، وتسمَّى أم صليب، لوجود صليب داخل دائرة صغيرة في "مينة" الساعة! ولا تزال حقيبة الإسعافات الأولية في السيارات، والخرائط، تحمل الصليب المتعارف عليه عند القوم، ويقابله عندنا الهلال.

بعيد. فإنْ كان أصحابنا التجَّار "رجال، أو أرباب، الأعمال"، وأسلافهم هم الذين نشروا الإسلام، قادرين على التأثير، فليسعوا إلى الحدِّ من استيراد المواد الاستهلاكية، التي تحمل أيَّ رمز ذي بُعد ثقافي، يختلف مع ثقافتنا الربَّانية. وليس هذا مطلبًا عسيرًا، لاسيَّما أنَّ بعض هؤلاء التجَّار قد وضعوا أسماءهم على بعض البضائع المصنَّعة في الخارج، مما يُستخدم في المنازل، أو الاستخدامات الخاصَّة، كالملابس، والعطور، ونحوها.

☆ ☆ ☆

الوقفة السابعة عشرة:

العبث مع المقدَّس

في يوم من أيام ربيع الأوَّل من عام ١٤٠٠هـ يناير عام ١٩٨٠م قدِمت إلى مدينة كليفلاند بولاية أوهايو عازمًا، بعون الله البدء في المرحلة الأخيرة من الدراسة. وكنت قد انتقلت من ولاية فلوريدا في الجنوب، وسحبت معي متاعي في قاطرة وتجوَّلت، تائهًا، في أشهر شارع في المدينة، وهو شارع إقليدس، الذي يشق المدينة شرقًا وغربًا.

عندما قربت من وسط المدينة وجدت على اليمين بناية جميلة جدًا، وحديثة جدًا، مطلية بالرخام على الطريقة التي شاعت في بيوتنا. وأمامها حديقة صغيرة، وعلى جانبها مواقف، وكتبت أمامها لوحة قائمة على الأرض: مسجد القرآن. قلت في نفسي: ما شاء الله، يبدو أنَّ حركة المسلمين هنا نشطة وغنية، إلى درجة الوصول إلى هذا المبنى الجميل في مكان مناسب. وعقدت العزم على زيارة مسجد القرآن في أقرب فرصة، بعد أنْ أحطَّ الرحال.

في يوم الجمعة تزيَّنت وتطيَّبت، ولبست من الثياب أحسنها، وذهبت قريبًا من وقت صلاة الجمعة، وأردت إيقاف سيارتي في

المواقف، فطلب مني رجل يقف في مدخل المواقف دولاراً، فدفعت الدولار، رغم أنّي أعلم أنَّ المساجد والمراكز الإسلامية لا تأخذ مالاً من المصلين، إلا بالتبرُّع والإنفاق الحسن. ولكنّي قلت في نفسي: لعل الإخوة يمرُّون بضائقة مالية، شأنهم شأن المراكز والمساجد الأخرى!!

ترجَّلت وقصدت المسجد، فقابلني رجل وفي فمه غليون، فقلت: لعل هذا المكان الذي يدخِّن فيه صاحب الغليون ليس من حرمة المسجد، فتماديت قليلاً فوجدت امرأة عاملة، تنظِّف جزءًا من المكان وقد حسرت عن ساقيها غير الفاتنتين، فدخلني الماء، وبدأت أشكُّ فيما أنا فيه. فسألت صاحب الغليون: أين المسجد؟ قال: هذا هو المسجد. قلت: أين الصالة ـ أقصد صالة الصلاة؟ فأشار إلى صالةٍ مُلئت بالطاولات والكراسي! قلت: عفواً، أين مكان الصلاة؟ قال: آه أنت مسلم! قلت: نعم. وهذا مسجد. قال: لا، ليس هذا مسجدكم. هذا نادٍ ماسوني، والمعبد الماسوني هو البناية الكبيرة المجاورة له. قلت: ولمَ يسمونه مسجد القرآن؟ قال: إنَّ الذي أنشأ المسجد ذو خلفية عربية، فسمَّاه بذلك. لكن إذا أردت المسجد فما عليك إلا أنْ تستمرَّ في الشارع هذا (إقليدس) غربًا إلى أنْ يأتيك المسجد، على يدك اليمين، وأعطاني رقم بناية المركز الإسلامي في المدينة. واتَّجهت إليه

على عجل، فوصلته ووجدته ما اعتدته من المراكز الإسلامية، في الغالب، بناية قديمة، المواقف حولها غير منتظمة، وتعطي للآخر صورةً ليست هي الصورة التي يراد لها أنْ تعطى إيَّاه.

في صيف العام نفسه، ١٤٠٠هـ/ ١٩٨٠م، أردت العودة إلى الوطن، فنزلت إلى وسط المدينة، قصدًا إلى التبضُّع من الهدايا المتواضعة للصغار من إخوتي. ووجدت الشارع المذكور، إقليدس، قد أُغلق فأوقفت السيارة بعيدًا عن الوسط، وذهبت ماشيًا إلى حيث المتاجر الكبيرة. وذهلت عندما رأيت الناس متجمهرين على طرف الشارع، فأنظر فأرى عرضًا لجمعيات لها لباس خاص، قريب باللباس العربي التركي. وتمرُّ كل جمعية يتقدَّمها أسمها فإذا هي جمعيات تحمل أسماء إسلامية، مثل زمزم والهدى والإسماعيلية، ومكَّة، والمدينة، والقدس، والزهراء، وغيرها من الأسماء المألوفة.

كان بجواري عجوز كبير، وأنا أرقب هذه المشاهد التي بدا فيها النساء على شكل الحريم، في السينما الغربية، وبدا فيها الجلاَّد ومعه سيف كبير، وبدا فيها الوالي أو الخليفة، وحوله المهرِّجون. وبدت فيها مناظر تعين على إساءة سمعة العرب والمسلمين، أكثر مما هي عليه من إساءة. فسألت العجوز مختبرًا: من هؤلاء؟ فقال: هذه جمعيات خيرية، تهتمُّ بالأطفال والمعوَّقين

والعجزة. وتخدم المجتمع خدمات جليلة. قلت له: أليس لها أهداف أخرى؟ فقال: أبدًا بل هي جمعيات خيرية. قلت: إذًا لماذا هذه الأسماء الغريبة؟ فلم يجبني العجوز الكبير لأنه لا يعرف الإجابة.

يسمِّي هؤلاء أنفسَهم بالمنتمين إلى الأماكن المقدسة Shriners، ولهم في كل مدينة فرع أو فروع، حتى وجدت في المدينة نفسها لهم أكثر من فرع، فرع للبيض وآخر للسود. وهم يمثلون أندية الماسونية، ويقرب من كل نادٍ معبد لهم.[1]

في ١٢/ ١١/ ١٤٠٢هـ ٣١/ ٨/ ١٩٨٢م رزقت بمولود ذكر، وفرحنا به، كما يفرح الأهل بمولودهم الجديد. وفي أيَّامه الأولى وجدت رجلاً يتَّصل بي، ويسألني زيارته لي! فأسأله: وما المناسبة؟ فنحن طلاَّب، وفي أمريكا، وقد تركنا حاتمًا الطائي في ربوع البلاد، فغلَّقنا الأبواب، ومسحنا سمة الكرم، إلا لمن نعرفهم. فأجابني أنَّه مندوب عن جمعية في الحي الذي نعيش فيه، وأنَّه يرغب في أن يعرض علي العضوية، فذكرت له أنِّي غير راغب في العضوية. لكنَّه أصر على إعطائي له موعدًا.

---

(١) انظر: حسين عمر حمادة. **الأدبيات الماسونية وصلتها بالعقائد اليهودية الصهيونية وخططها لتقويض المجتمعات الإسلامية والمسيحية**.. دمشق: دار الوثائق، ١٤١٥هـ/ ١٩٩٥م.. ٦٢٤ ص.

احترمت إصراره وأعطيته موعداً. فجاء وأعطاني فكرة عن الجمعية التي سمَّاها "المنتمين إلى الغابة" Foresters، وأكَّد أنَّهم لا يحملون من الاسم إلا لفظه، لا معناه، وأنَّهم يؤمنون بحرية الدين، وأنَّ العضو في جمعيتهم له شأنه في معتقده. وأحضر معه فيلمًا تصويريًا عن بعض أنشطتهم.(١)

طلب أنْ يطرح عليَّ أربعة أسئلة، والإجابة عنها بالإيجاب كفيلة بأنْ تفتح لي المجال أنْ أكون عضوًا في الجمعية. فقلت اسأل. فسأل السؤال الأول: هل ترغب في أنْ تضمن تعليم ابنك من الروضة إلى أنْ يتخرج من الكلية؟ قلت: لا، فالله هو الذي يضمن لي ذلك. قال: إذًا لا أسألك البقية. قلت: بل اسأل. قال: هل ترغب في أنْ تضمن لك بيتًا على شواطئ فلوريدا أو كاليفورنيا، عندما تحال إلى التقاعد؟ قلت: لا. وتذكرت دعاء آسية زوج فرعون في قوله تعالى: ﴿**وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً لِّلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِندَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ**﴾(التحريم: ١١). ولم أقرأ الآية عليه، إلا أنَّي أشعرته أنِّي لا أنوي الإقامة الدائمة في الولايات المتَّحدة الأمريكية. فَلَمَّ أوراقه بعصبية، وهمَّ بالخروج وهو يتمتم

(١) انظر: محمود عبدالحميد الكفري. **العلاقات السرية بين اليهودية وبين الماسونية والصهيونية**. . دمشق: دار قتيبة، ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠٢م. . ٢٣٩ ص.

بكلمات. ولكني دعوته إلى أنْ يسأل السؤالين الباقيين، ولكنه رفض وأبدى لي أنِّي لا أصلح عضوًا في جمعيتهم على أيِّ حال.

أسفت أنِّي تسرَّعت بالإجابة على كل سؤال على انفراد. وكنت تمنَّيت أنْ لو تركت الرجل يسأل الأسئلة الأربعة ثم أجيب عليها. بل ربَّما أعطيه وقتًا أوهمه أنِّي سأفكِّر في الأمر مع أهلي، ولكني تسرَّعت، فضاع مني السؤالان الباقيان، اللذان لا أظن أنَّهما يقلاَّن إغراءً عن السؤالين الأوَّلين.

هذه بعض الممارسات التي عايشتها خلال مدَّة محدودة، ذكَّرني بها كتاب **صائد الجواسيس** Spy Catcher **لبيتر رايت**، الذي حدَّد فيه أنَّه يجب على كل من يعمل في هيئة الاستخبارات البريطانية أنْ يكون ماسونيًا.[1]

استعرضت ما رأيته من هذه الأنشطة والمحاولات في استمالة بعض الطلبة الأجانب، الذين يتوقَّع لهم أن يكونوا ذوي تأثير فعَّال في ديارهم، عندما يعودون إليها. ولذا فإن من الحكمة أنْ تتقرَّب منهم هذه الجمعيات والنوادي الماسونية في سبيل أنْ توجَد لها أوكارًا في البلاد الأخرى، لاسيما منها التي لا تسمح بحال بإقامة هذه النوادي تحت أيِّ اسم. ووجدت في النهاية أنَّ

(١) انظر: بيتر رايت. **صائد الجواسيس**/ ترجمة عماد القسوس.. ط ٢.. عمَّان: دار الشروق، ١٩٨٨م.. ٤٠٤ ص.

هذا نوع من أنواع الاستهداف والعبث بالأفكار، التي يتعرَّض لها الطلبة العرب المسلمون. الأمرُ الذي يقتضي مزيداً من الحيطة والحذر من قبل هؤلاء الطلبة.

كان كلٌّ من **مصطفى الخالدي وعمر فروُّخ** أكثر صراحةً ووضوحًا، حينما يقولان: «ومما لا ريب فيه أنَّ ذهاب الطلاَّب الشرقيين إلى أوروبة وأمريكة يكسبهم شيئًا من أساليب الحياة الغربية، ومن الاتِّجاه الغربي في التفكير والعلم والسلوك، وما إلى ذلك. ولا ريب أيضًا في أنَّ لذلك حسناته وسيئاته، ولكن المبشِّرين يريدون أنْ يفيدوا من دراسة الطلاَّب الشرقيين أمرًا آخر. إنَّهم يريدون أنْ يجعلوا من هؤلاء الطلاَّب «نصارى» بالفعل أو ممالئين للنصرانية. ويدخل في هذا الباب زواج المسلمين بالغربيات».[1] ويستشهدان بدعوة المستشرق الفرنسي لويس ماسينيون من أنَّ الطلاَّب الشرقيين الذين يأتون إلى فرنسة يجب أنْ يلوَّنوا بالمدنية المسيحية.[2]

☆ ☆ ☆

(١) انظر: مصطفى الخالدي وعمر فروُّخ. **التبشير والاستعمار في البلاد العربية: عرضٌ لجهود المبشِّرين التي ترمي إلى إخضاع الشرق للاستعمار الغربي**. . بيروت: المكتبة العصرية، ١٩٨٣م. . ص ٨٨ .

(٢) انظر: مصطفى الخالدي وعمر فروُّخ. **التبشير والاستعمار في البلاد العربية**. . المرجع السابق. . ص ٨٩.

الوقفة الثامنة عشرة:

العَبَث بالذائقة الأدبية

من العبث في الفن/ الرسم والأعمال الفنية إلى العبث في الأدب، شعره ونثره، إذ تتناثر علينا في الصحافة اليومية وفي بعض الدوريات الأدبية قطع نثرية وشعرية، وقطع أخرى لا هي نثرية بحتة، ولا شعرية بحتة، يزعم أصحابها أنها من الأدب الراقي، الذي يحتاج من قارئه إلى مزيد من التأمُّل، والتذاكي، وادِّعاء المعرفة بالأدب بمذاهبه ومساربه، بما في ذلك تلك الرموز والطلاسم واستخدام المتناقضات من الكلمات والتعبيرات، فيجعلون القارئ في حيرة من أمره. وكما قلت في الوقفة السابقة إن لم يفهم القارئ ما يقال أُتُّهم في ذائقته الأدبية. وحينما قيل لأحدهم: لمَ لا تقول ما يُفهم؟ ردَّ قائلاً: لمَ لا تفهم ما يقال؟!

أظن أنَّ في هذا المجال الكثير من القول الذي لا يُفهم، سواء أَسُمِّيَ باسم شائع كالحداثة، توسُّعًا في الإطلاق. أم لم يُسمَّ باسم شائع، واكتُفي له بإطلاق الأدب الرمزي، وهو ليس من الرمز في شيء. وربَّما أطلق عليه الأدب الطلاسُمي، واقتصر روَّاده على أولئك القرّاء الذين يبحثون عن الغموض في التعبير الدالِّ على الغموض في الفكرة.

لعلي أذهب أبعد من ذلك لأزعم أنَّ الأمر ليس غموضًا في الفكرة أدَّى إلى غموض في التعبير، بل إنَّه تغامُض في التعبير مع وضوح الفكرة، أدَّى إليه - إلى هذا التغامُض - الإصرار على العبث في التعبير.

إذا كانت مصائب قوم عند قوم فوائد، فإنَّ المستفيد من العبث في الأدب هم مجموعة من الذين نصَّبوا أنفسهم نقَّادًا، وهم ليسوا بالضرورة نقَّادًا، فنقدوا هذا العبث الأدبي بالعبث النقدي، وأعطوا العابثين من المكانة الأدبية ومن التأويل والتفسير للطلاسم ما لم يفكِّر به أولئك العابثون، ذلك لأنَّهم تركوا مجال التأويل والتفسير مفتوحًا للمتلقِّين والنقَّاد، فدخل المتلقُّون والنقَّاد في مقاصد الكتَّاب، وكل فهم هذه الطلاسم فهمًا مختلفًا عن الآخر، إنْ لم يكن مغايرًا له. وتذاكى بعضُ المتلقِّين والقرَّاء، وادَّعوا أنَّهم يفهمون ما يقال، ودخلوا في المقاصد والنوايا والمراد، دون وضوحه في النص.[1]

لست أتحدَّث هنا عن بعض القطع النثرية الوجدانية التي يبثُّها كتَّاب تعوَّدوا عليها، وعوَّدوا غيرهم عليها، وهي لا تفيد

(١) انظر المناظرة حول الحداثة وما بعد الحداثة بين كل من: عبدالوهَّاب المسيري وفتحي التريكي. **الحداثة وما بعد الحداثة**. - دمشق: دار الفكر، ١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٣م. - ٣٦٨ ص. - (سلسلة حوارات لقرن جديد).

كثيراً سوى تنمية الملَكَة الأدبية، والرفع من شأن الذائقة، أي الذوق الأدبي، لكنها لا تقدِّم معلومة جديدة، ولا تضيف ثقافة إلى ثقافة قارئها سوى ذلك. هذه الوجدانيات فنٌّ من فنون الأدب معروفة لدى الفرسان من النقَّاد.

الذي أرمي إليه، في مسألة العبث في الأدب، هو ذلك الذي يشكِّك في فهم المتلقِّي، فيبحث عن فهم له، وكأنه من تلك الألغاز التي تُتداول حول لهيب النار في ليلة من ليالي السمَر، يرفِّه فيها الناس عن أنفسهم. والقارئ لهذه الطلاسم لا يقرأ ليبحث عما وراء السطور، ولكنه يقرأ ليستفيد، فيصاب بخيبة أمل من جرَّاء إنفاق الوقت فيما لا يفيد، سوى توسيع مداركه الوجدانية.

لا يُشكُّ في أنَّ بعض الكتّاب يرغب في الشهرة، أو التميُّز، أو البروز، أو الخروج عن المألوف، فيما يكتب، وقد يصل ذلك إلى مظهره ليدلَّ على مخبره، ولكن ذلك كله لا يسوِّغ له العبث بمشاعر المتلقِّين وأحاسيسهم، وإن كان هو يعيش حالاً من القلق وعدم الاستقرار الذهني والفكري والثقافي، أو يوحي للآخرين بذلك. وله منّا أنْ نسأل الله لنا وله الاستقرار في أذهاننا وأفكارنا وثقافتنا، لنوفَّق، حينئذٍ، في أنْ نقول ما يُفهم.

موضوع الحداثة قد أخذ أبعاداً عدَّة، وكتب فيه كثيرون من الطرفين، الراغب فيه والراغب عنه، وجُعلت الحداثة ضداً حتمياً

للتراث.[1] وأدخل الدين في التراث، والدين ليس من التراث، بالمفهوم الشائع للتراث، وأصبحنا نقرأ عن الأصالة والمعاصرة، وكأنَّها ثنائية متناقضة تمامًا. ولا تجتمع في حال واحدة، فإمَّا أن تكون تراثيًا أو تكون حداثيًا، وإمَّا أنْ تكونَ عصرانيًا أو تكونَ رجعيًا، وإمَّا أنْ تكون مستقبليًا أو تكون ماضويًا. ثنائية يبدو أنها مبتدعة في مسألة الجمع بينها، واستحالة ذلك.[2]

صدر، فيما صدر، في هذا المجال كتابٌ عن سلسلة معالم الحداثة، التي يديرها الأستاذ الدكتور **عبدالمجيد الشرفي**، واسم الكتاب: **الإسلام والحداثة** لصاحب السلسلة نفسه، الأستاذ **عبدالمجيد الشرفي**.[3] وأصل الكتاب دروس أُلقيت على طلبة أحد المعاهد التونسية، منذ سنة ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م. والطرح في هذا الكتاب أوجد فجوةً بين الإسلام والحداثة، وكأنَّ الإسلامَ ضدٌّ الحداثة، وكأن الحداثة - بالتالي - ضدٌّ الإسلام،[4] بحيث يدعو المؤلِّف إلى أسلمة الحداثة، أو تحديث الإسلام!

---

(١) انظر مثلاً: عوض القرني. **الحداثة في ميزان الإسلام**. - القاهرة: دار هجر، ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م. وقد لقي هذا الكتاب ردود فعل متفاوتة، بين مادح وقادح، إلى درجة التشكيك في انفراد المؤلِّف بإعداد الكتاب.

(٢) انظر في مناقشة هذه الثنائية: أكرم ضياء العُمَري. **التراث والمعاصرة**. - مرجع سابق. - ١٤١ ص.

(٣) عبدالمجيد الشرفي. **الإسلام والحداثة**. - تونس: دار الجنوب، ١٩٩٨م. - ٢٣٠ ص.

(٤) عبدالإله بلقزيز، محاور. **الإسلام والحداثة والاجتماع السياسي: حوارات فكرية**. - بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ٢٠٠٤هـ. - ١٤٧ ص.

أسلمة الحداثة أمرٌ ممكنٌ، فيما يظهر.[1] أمَّا تحديث الإسلام بالمفهوم الحداثي، الذي استُورد من الآخر، فهي دعوة استشراقية قديمة، سعت إلى تطوير الإسلام، لا التجديد له بظهور مجدِّدين له بين فينة وأخرى، على ما هو معلوم في تاريخ الإسلام والمسلمين. إلاَّ أنَّ **عبدالمجيد الشرفي** يؤكِّد «أنَّ الإسلام لا يستطيع البقاء بمعزل عن التيَّارات الفكرية والفلسفية الحديثة، مثلما أنَّ المشاغل العملية التي ميَّزت الفكر العربي الإسلامي الحديث لا بُدَّ لها أنْ تنضج في المستوى التنظيري، وتؤول إلى عملية تأليفية حيَّة متجدِّدة بين القيم الدينية ومستحدثات العصر».[2]

إذا كان المتلقِّي يدرك دوافع المستشرقين في "تحديث الإسلام" أو تطويره، فإنَّه يخشى أنْ يصل إلى نتيجة أنَّ هذه الأفكار التي دعا إليها هؤلاء المستشرقون لاقت آذانًا صاغية من لدن بعض مفكِّري المسلمين، مع اختلاف في الدوافع والأهداف.[3] ومنها ما قام على الانبهار بالدعوة إلى تطوير الدين، الذي نؤمن نحن المسلمين أنه كَمُلَ تامًا في أصوله، لا كما يوحي حديث الأستاذ/**عبدالمجيد الشرفي** في

(١) انظر مثلاً: عبدالله محمَّد الغذَّامي. **حكاية الحداثة في المملكة العربية السعودية**.. ط ٢. ـ الدار البيضاء: المركز الثقافي العربي، ٢٠٠٤م.. ٣٠٤ ص.

(٢) عبدالمجيد الشرفي. **الإسلام والحداثة**.. مرجع سابق.. ص ١٨٠.

(٣) انظر: مصطفى الشريف. **الإسلام والحداثة: هل يكون غداً عالم عربي؟**.. القاهرة: دار الشروق، ١٩١٤هـ/ ١٩٩٩م.. ١٠٤ ص.

مسألة تحديث الإسلام، التي ركَّز فيها على مشكلة الحكم وقضية المرأة، ليختم المؤلِّف كتابه بالدعوة إلى أنَّه «فيما يخصُّنا، فكما أنَّ نواميس الحياة تقتضي منَّا التكيُّف مع الضغوط التاريخية الأليمة التي نمرُّ بها، فإنَّنا لا ينبغي أنْ ننتظر "ما بعد الحداثة" علَّه يوفِّر لنا مخرجًا، إذ ما بعد الحداثة ليس إلا مغالاة فيها».[1]

من حقِّ كلِّ الناس الكتابة عن هذا الموضوع العميق، إلا أنَّ هذا الحقَّ يقتضي أنْ يكون المتحدِّث عن هذا الموضوع مطَّلعًا على قدر كافٍ من ثقافته وطروحاته، بحيث يتمكَّن من استخدام الميزان استخدامًا مقنعًا للمتلقِّي، وإذا أمكن أنْ يكون الطرح موضوعيًا كان ذلك أدعى إلى النظرة التخصُّصية. وهذا التوجُّه يُكتب أكثر مما يُطبَّق.

إنَّما ضُربَ مثلٌ بموضوع الحداثة، لأنَّها كانت حاضرة في الذهن من خلال الاطِّلاع على كتاب الأستاذ/**عبدالمجيد شرفي**، وما في حكمه من الإسهامات التي تتحدَّث عن الحداثة بوصفها مذهبًا فكريًا، أكثر من كونها أسلوبًا أدبيًا. والأمر يصدق على موضوعات أخرى كثيرة بعضها آني، وبعضها مستمرٌّ، بعضها قديم، وبعضها مستحدث، بعضها سياسي، وبعضها اجتماعي.. وهكذا.

(١) عبدالمجيد الشرفي. **الإسلام والحداثة**.. مرجع سابق.. ص ١٧٩.

الوقفة التاسعة عشرة:

العبث بالإرث

منذ أنْ تسلَّم الخليفة الراشد **عمر بن الخطاب** - رضي الله تعالى عنه - مفاتيح **بيت المقدس**، في السنة الخامسة عشرة من هجرة المصطفى ﷺ، ٦٣٦م، والقدس عربية إسلامية، تُحكَم بالإسلام، ويتمتَّع أهلها بالحكم الإسلامي العادل، حتى مع الأعداء: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ**﴾(المائدة ٨). وأعداء الإسلام والمسلمين، شديدو العداوة، هم اليهود والذين أشركوا: ﴿**لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِّلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَىٰ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ**﴾(المائدة ٨٢). وعليه فقد أضحت القدس إرثًا إسلاميًا.

تَمرُّ على المسلمين كلَّ سنة ذكرى احتلال **فلسطين**، بتحقيق وعد **بلفور**، وزير خارجية بريطانيا في العقد الثاني من القرن الميلادي العشرين المنصرم (١٩١٧م/١٣٣٦هـ)، المبني، أصلاً، على توقُّعات **هرتزل** سنة ١٣١٦هـ/١٨٩٨م بإقامة وطنٍ قوميٍّ لليهود

في **فلسطين**، ينمِّيه الاعتقاد لدى اليهود بأنَّ الله تعالى قد اصطفاهم من بين شعوب الأرض.[1]

مهما جرى الأمر فإنَّ وجود اليهود بهذه الصورة في **فلسطين**، يحكمونها، ويستقرُّون بها، ويجتمعون بها أمر غير طبيعي، وليس مستمرًا، مهما كان الحال. والأمر غير الطبيعي لا يتوقَّع له الاستمرار، فإذا دخل في ذلك الاستيلاء على إرث إسلامي، مثل بيت المقدس، فإنَّ مدة بقاء هذا الجسم المزروع لن تطول.

لقد شاهدتُ برنامجًا مؤثِّرًا بمناسبة مرور ثلاث وخمسين سنة على الاحتلال، وُفِّق مُعدُّوه ومخرجوه والعاملون عليه على عرضه عرضًا وثائقيًا علميًا مؤثِّرًا. ووجدتُ فيه من الفقرات ما يؤكِّد، لخاصَّة الناس وعامَّتهم، أنَّ الأمل معقود على الأجيال القادمة، التي بدأت تشقُّ طريقها في الحضانة والروضة والمدرسة الابتدائية، إذ لا يزال هؤلاء يتحدَّثون ببراءة عن العودة إلى الأرض، إلى الإرث، ولا يزالون مصمِّمين - وهم صغار - على أنَّ الوضع الذي هم فيه غير طبيعي. وهم الصغار الذين سيستمرون في محاربة اليهود، حتى يخرجوهم من ديارهم، بهذه البساطة من الطرح، ذلك أنِّي عندما

(١) انظر: محمَّد جمال طحَّان. **الخديعة الكبرى: هل اليهود . حقًا . شعب الله المختار؟**.. دمشق: الأوائل، ٢٠٠٣م.. ٢٤٠ ص.

رأيتُ هؤلاء الأطفال تيقَّنتُ أكثرَ بأنَّ المسألة لن تستمرَّ على ما هي عليه.

دون الدخول في تعقيدات المحلِّلين، ودون النظر إلى العوامل الداخلية والخارجية، ودون النظر إلى القوَّة الماديِّة الهائلة، فإني من أولئك الذين يجزمون أنَّ هناك قوةً هي أقوى من كل قوَّة ماديِّة، وهي كفيلة بتخطِّي كل شيء، يقف أمامها. وهي قوَّة الإيمان المصحوبة بالإعداد بالقوَّة المساندة. واشتدِّي أزمة تنفرجي - بإذن الله تعالى ..

هذا مع التوكيد على أن الأمر ليس متروكًا لاجتهادات شخصية، قامت عليها أحزاب اختلطت أوراقها، وبالتالي اختلطت لديها الأولويات، فما عادت تفرِّق بين الصديق والعدو، والمحارَب والمستأمن، فلجأت إلى الغلو والتطرُّف في النظر إلى القضية، فكانت عونًا للعدوِّ على ذاتها، بحيث فتحت له مجال التعاطُف الدولي، شرقًا وغربًا، هذا التعاطُف الذي لم يقتصر على المعنوي فحسب، بل إنَّه جلب معه الماديِّ، بغير حساب. فالنضوج الفكري في فهم القضيَّة، وإفهامها للآخر كفيلٌ - بإذن الله تعالى - بالوصول إلى الهدف، الذي قد لا يكون للزمن فيه اعتبار.

ثم مع هذا، ولعله من القوَّة، أنَّ القضية قضيتنا جميعًا، وأنَّنا معها اليوم، كما كنا معها بالأمس، وكما سنكون معها غدًا - إنْ شاء

الله - بالقيادة وبالقاعدة، بالدَّعم الملموس، والظاهر والواضح المحسوس، والشواهد على هذا الدعم - والحمد لله - معلومة، ولا تزال تتردَّد آثارها إلى لحظتنا هذه.

☆ ☆ ☆

الوقفة العشرون:

العَبَث بالذائقة الفنِّية

علَّمني الأستاذ الفنَّان/ **محمَّد بن موسى السليم** - رحمه الله تعالى - مبادئ الرسم، عندما كان يدرِّسُ مادَّة (التربية الفنية) في المدرسة المتوسِّطة الثالثة بشرق الرياض. كان - رحمه الله تعالى - حريصًا على تخريج دفعة تفهم في أوليَّات الرسم، ويبدو أنَّه لم يوفَّق في حالتي على الأقلِّ، ولكنَّه صرفني إلى الاهتمام بالفن نسبيًا، بحيث أصبحت أُلقي بالاً للَّوحات التي أراها أمامي، حتى أنِّي زرت متحف اللوفر، بعد أنْ قرأت عنه كثيرًا، ومتاحف أخرى، ووقفت عند عدد من اللوحات أتأمَّلها، وكأني أحد الفنَّانين، أو نقَّاد الفن.

من المتابعة لهذا المجال وقوفي أحيانًا عند برنامج يحكي رحلة فنان/ رسَّام مع الفن، ومن العرض في هذا البرنامج رسمُه للوحةٍ من لوحاته التي يظن أنَّها هي المعبِّرة عمَّا يجول في وجدانه من نظرات لما حوله. إلا أنِّي استغربت كثيرًا عندما تركِّز هذه البرامج التي تُتناقَل بين الفضائيات على فنانين عبثيين، إلى درجة أنَّهم يُرونك كيف (يكثُّ) الفنان منهم الدهانات بألوان مختلفة على لوح عريض من الخشب، ثم يعبث بها بقدميه،

أو بيديه، أو بعصا، أو بالحاسب الآلي، فيخلط بين الألوان خلطًا عابثًا، وهو يحسب أنَّه يحسن صنعًا، أو أنَّه يجعلك تحسب أنَّه يحسن صنعًا، ليخرج بالنهاية بلوحة، هي مجرَّد مزج غير منظَّم من الألوان، ثم تطلب منه شرحها لك، فتراه يحلِّق بك في عالم غير المعقول، ويريك أشكالاً نتجت عن عبثه، فيجعل منها مناظرَ لها تأويلها عنده، فتُظهر شيئًا من العجب دون أنْ تُبدي أيَّ إشارة لعدم فهمك لهذا كله، خوفًا من أنْ تُتَّهم في ذائقتك الفنية! وتحضرني هنا قصَّة اللوحة التي طليت باللون الأسود، وسعَّرها الفنَّان بخمسة وثلاثين ألف دولار، ولم يفهمها إلاَّ من رسمها، ففسَّرها لمن أرادوا فهمها بتفسير عنصري، فاشتُريت.

يبدو أنَّ هذا هو ديدن بعض أولئك الذين يُحملقون في اللوحات أو الأعمال الفنية الأخرى، وعندما لا يرجون نتيجةً فنية واضحة ينسلُّون، دون الانزلاق في طلب تفسير أو توضيح لهذا العمل الفني أو ذاك، بينما هو لا يخرج عن كونه عبثًا باسم الفن، وربَّما صحبه استغفال للمستقبِل أو المستفيد أو المتلقِّي، حتى أصبح الفنُّ بهذه الصورة مصدرًا من مصادر المعلومات عن الحدِّ الذي وصل فيه العبث في حياة الناس.

هذا العبث الذي قد يؤخذ على أنَّه ترجمة لمدى ما وصلت إليه بعض المجتمعات من الفراغ والخواء الروحي والقلق النفسي،

الذي انعكس على الحياة العامة بتعبيراتها كافَّة، بما في ذلك الفن بالرسم والأعمال الفنية الأخرى. ولعلَّ من آخر مظاهر هذا القلق ظهور فنَّان قد أطال لحيته بشكل ملفت، واستخدم أطرافها فرشاةً يرسم بها لوحاته! وذلك الدلفين الذي درَّبه مروِّضه على أنْ يعَضَّ على الفرشاة بأسنانه، ويشرع في تمريرها على لوحة أمامه، لتضحي منظرًا يُباع بآلاف الدولارات.

حيث بدأت هذه الوقفة بذكر المذكور بالخير الفنان/ **محمَّد بن موسى السليم** - رحمه الله تعالى - فإنَّها تُختم بالقول بأنَّ الحديث عن العبث والعبثية لا يقصد ذلك المذكور بالخير دائمًا، فلم أرَ فيه عبثًا في حياته الفنِّية، ولكني استهللت به لإقناع القارئ بمدى قربي من الفنِّ بالرسم، عندما تتلمذت عليه - رحمه الله تعالى - سنة دارسة كاملة.

☆ ☆ ☆